تفسير سورة النمل

هى ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون . قال القرطبى : وهى مكية كلها فى قول الجميع [١] . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة النمل بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ .

قوله : ﴿ طس ﴾ قد مرّ الكلام مفصلا فى فواتح السور ، وهذه الحروف إن كانت اسما للسورة فمحلها الرفع على الابتداء وما بعده خبره ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى هذا اسم هذه السورة وإن لم تكن هذه الحروف اسما للسورة ، بل مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها ، والإشارة بقوله : ﴿ تلك ﴾ إلى نفس السورة ؛ لأنها قد ذكرت إجمالا بذكر اسمها ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ آيات القرآن ﴾ والجملة خبر المبتدأ الأوّل على تقديرأنه مرتفع بالابتداء ﴿ وكتاب مبين ﴾ قرأ الجمهور بجرّ كتاب عطفا على القرآن ، أى تلك آيات القرآن وآيات كتاب مبين ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ وكتاب ﴾ : القرآن نفسه ، فيكون من

---

(١) القرطبى ٧/ ٤٨٧٠ .

عطف بعض الصفات على بعض مع اتحاد المدلول ، وأن يكون المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، أو نفس السورة ، وقرأ ابن أبى عبلة : « وكتاب مبين » برفعهما عطفا على آيات . وقيل : هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف وإقامة المضاف إليه مقامه ، أى وآيات كتاب مبين ، فقد وصف الآيات بالوصفين : القرآنية الدالة على كونه مقروءا مع الإشارة إلى كونه قرآنا عربيا معجزا ، والكتابية الدالة على كونه مكتوبا مع الإشارة إلى كونه متصفا بصفة الكتب المنزلة ، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة مع اتحاد المدلول ، ثم ضم إلى الوصفين وصفا ثالثا ، وهى الإبانة لمعانيه لمن يقرؤه ، أو هو من أبان بمعنى : بان معناه واتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة . وقدّم وصف القرآنية هنا نظرا إلى تقدّم حال القرآنية على حال الكتابة وأخّره فى سورة الحجر فقال : ﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ [الحجر : ١] ؛ نظرا إلى حالته التى قد صار عليها ، فإنه مكتوب . والكتابة سبب القراءة والله أعلم . وأما تعريف القرآن هنا وتنكير الكتاب ، وتعريف الكتاب فى سورة الحجر ، وتنكير القرآن فلصلاحية كلّ واحد منهما للتعريف والتنكير .

﴿ **هدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ فى موضع نصب على الحال من الآيات أو من الكتاب ، أى تلك آيات هادية ومبشرة، ويجوز أن يكون فى محل رفع على الابتداء ، أى هو هدى ، أو هما خبران آخران لتلك ، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقدّر ، أى يهدى هدى ويبشر بشرى . ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى والبشرى فقال : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾ والموصول فى محل جرّ ، أو يكون بدلا أو بيانا ،أو منصوبا على المدح ، أو مرفوعا على تقدير مبتدأ . والمراد بالصلاة : الصلوات الخمس ، والمراد بالزكاة : الزكاة المفروضة ، وجملة : ﴿**وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وكرّر الضمير للدلالة على الحصر ، أى لا يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، وجعل الخبر مضارعا للدلالة على التجدد فى كلّ وقت وعدم الانقطاع .

ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ وهم الكفار، أى لا يصدّقون بالبعث ﴿ **زينا لهم أعمالهم** ﴾ قيل : المراد : زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : المراد : أن الله زين لهم الأعمال الحسنة وذكر لهم ما فيها من خيرى الدنيا والآخرة فلم يقبلوا ذلك . قال الزجاج : معنى الآية أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه ﴿ **فهم يعمهون** ﴾ أى يتردّدون فيها متحيرين على الاستمرار لا يهتدون إلى طريقة ولا يقفون على حقيقة . وقيل : معنى ﴿ **يعمهون** ﴾: يتمادون. وقال قتادة : يلعبون ، وفى معنى التحير . قال الشاعر :

ومهمه أطرافه فى مهمه أعمى الهدى الحائرين العمه

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المذكورين قبله ، وهو مبتدأ خبره ﴿ **لهم سوء العذاب** ﴾ قيل : فى الدنيا كالقتل والأسر ، ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده :﴿ **وهم فى الآخرة هم الأخسرون** ﴾ أى هم أشدّ الناس خسرانا وأعظمهم خيبة . ثم مهد سبحانه مقدّمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة ، فقال : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ أى يلقى عليك فتلقاه وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم . قيل : إن ﴿ **لدن** ﴾ ها هنا بمعنى عند . وفيها لغات كما تقدّم فى سورة الكهف .

﴿ **إذ قال موسى لأهله** ﴾ الظرف منصوب بمضمر وهو اذكر . قال الزجاج : موضع « إذ » نصب ، المعنى : اذكر إذ قال موسى ، أى اذكر قصته إذ قال لأهله ، والمراد بأهله : امرأته فى مسيره من مدين إلى مصر ، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب ، فكنى عنها بلفظ الأهل الدالّ على الكثرة ، ومثله قوله: ﴿ امكثوا ﴾ [طه: ١٠]. ومعنى ﴿ **إنى آنست نارا** ﴾ : أبصرتها ﴿ **سآتيكم منها بخبر** ﴾ السين تدلّ على بعد مسافة النار ﴿أوآتيكم بشهاب قبس ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى بتنوين ﴿ **شهاب** ﴾ ، وقرأ الباقون بإضافته إلى قبس ، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلا من شهاب أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس ، وعلى القراءة الثانية بالإضافة للبيان، والمعنى على القراءتين: آتيكم بشعلة نار مقبوسة ، أى مأخوذة من أصلها . قال الزجاج: من نوّن جعل ﴿ **قبس** ﴾ من صفة شهاب ، وقال الفراء : هذه الإضافة كالإضافة فى قولهم : مسجد الجامع ، وصلاة الأولى ، أضاف الشىء إلى نفسه لاختلاف أسمائه . وقال النحاس : هى إضافة النوع إلى الجنس كما تقول : ثوب خز ، وخاتم حديد . قال : ويجوز فى غير القرآن بشهاب قبسا على أنه مصدر أو بيان حال ﴿**لعلكم تصطلون** ﴾ أى رجاء أن تستدفئوا بها ، أو لكى تستدفئوا بها من البرد ، يقال : صلى بالنار واصطلى بها : إذا استدفأ بها . قال الزجاج : كلّ أبيض ذى نور فهو شهاب . وقال أبو عبيدة : الشهاب : النار، ومنه قول أبى النجم :

كأنما كان شهابا واقدا أضاء ضوءا ثم صار خامدا

وقال ثعلب : أصل الشهاب : عود فى أحد طرفيه جمرة ، والآخر لا فيه ، والشهاب : الشعاع المضىء ، وقيل : للكوكب :شهاب ، ومنه قول الشاعر :

فى كفه صعدة مثقفة فيها سنان كشعلة القبس

﴿ **فلما جاءها** ﴾ أى جاء النار موسى ﴿ **نودى أن بورك من فى النار ومن حولها** ﴾: « أن» هى المفسرة لما فى النداء من معنى القول ، أو هى المصدرية ، أى بأن بورك . وقيل : هى المخففة من الثقيلة . قال الزجاج : « أن » فى موضع نصب ، أى بأن قال ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع اسم ما لم يسم فاعله . والأولى أن النائب ضمير يعود إلى موسى . وقرأ أبى وابن عباس ومجاهد : « أن بوركت النار ومن حولها » حكى ذلك أبو حاتم . وحكى الكسائى عن العرب :

باركك اللّه ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، وكذلك حكى هذا الفراء . قال ابن جرير : قال : ﴿ **بورك من فى النار** ﴾ ولم يقل : بورك على النار على لغة من يقول : باركك اللّه . أى بورك على من فى النار ، وهو موسى ، أو على من فى قرب النار لا أنه كان فى وسطها . وقال السدّى : كان فى النار ملائكة ، والنار هنا هى مجرّد نور، ولكنه ظن موسى أنها نار ، فلما وصل إليها وجدها نورا . وحكى عن الحسن وسعيد بن جبير أن المراد بمن فى النار : هو اللّه سبحانه، أى نوره . وقيل : بورك ما فى النار من أمر اللّه سبحانه الذى جعلها على تلك الصفة . قال الواحدى : ومذهب المفسرين أن المراد بالنار : النور ، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **وسبحان اللّه ربّ العالمين** ﴾ وفيه تعجيب لموسى من ذلك.

﴿ **يا موسى إنه أنا اللّه العزيز الحكيم** ﴾ الضمير للشأن ، أنا اللّه العزيز الغالب القاهر الحكيم فى أمره وفعله. وقيل : إن موسى قال : يا ربّ من الذى نادانى ؟ فأجابه اللّه سبحانه بقوله : ﴿ **إنه أنا اللّه** ﴾ ثم أمره سبحانه بأن يلقى عصاه ليعرف ما أجراه اللّه سبحانه على يده من المعجزة الخارقة ، وجملة : ﴿ **وألق عصاك** ﴾ معطوفة على ﴿**بورك**﴾، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فألقاها من يده فصارت حية ﴿ **فلما رآها تهتز كأنها جان** ﴾ قال الزجاج : صارت العصا تتحرك كما يتحرّك الجانّ ، وهى الحية البيضاء ، وإنما شبهها بالجانّ فى خفة حركتها ، وشبهها فى موضع آخر بالثعبان لعظمها. وجمع الجانّ : جنان وهى الحية الخفيفة الصغيرة الجسم. وقال الكلبى : لا صغيرة ولا كبيرة ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ من الخوف ﴿ **ولم يعقب** ﴾ أى لم يرجع ، يقال : عقب فلان : إذا رجع ، وكل راجع معقب . وقيل : لم يقف ولم يلتفت . والأوّل أولى ؛ لأن التعقيب هو الكرّ بعد الفرّ.

فلما وقع منه ذلك قال اللّه سبحانه : ﴿ **يا موسى لا تخف** ﴾ أى من الحية وضررها ﴿ **إنى لا يخاف لدىّ المرسلون**﴾ أى لا يخاف عندى من أرسلته برسالتى فلا تخف أنت . قيل : ونفى الخوف عن المرسلين ليس فى جميع الأوقات ، بل فى وقت الخطاب لهم ؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون . ثم استثنى استثناء منقطعا فقال : ﴿ **إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم** ﴾ أى لكن من أذنب فى ظلم نفسه بالمعصية ﴿ **ثم بدل حسنا** ﴾ أى توبة وندما ﴿**بعد سوء**﴾ أى بعد عمل سوء ﴿ **فإنى غفور رحيم** ﴾ وقيل : الاستثناء من مقدّر محذوف ، أى لا يخاف لدىّ المرسلون ، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلا من ظلم ثم بدل إلخ ، كذا قال الفراء . قال النحاس : الاستثناء من محذوف محال ؛ لأنه استثناء من شىء لم يذكر . ورُوى عن الفراء أنه قال : إلا بمعنى الواو . وقيل : إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف . والمعنى : إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التى لا يسلم منها أحد ، واختار هذا النحاس ، وقال : علم من عصى منهم فاستثناه فقال : ﴿ **إلا من ظلم** ﴾ وإن كنت قد غفرت له كآدم وداود وإخوة يوسف وموسى بقتله القبطىّ . ولا مانع من الخوف بعد المغفرة ، فإن نبينا ﷺ الذى غفر

اللّه له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر كان يقول : «وددت أنى شجرة تعضد » (١) .

﴿ **وأدخل يدك فى جيبك** ﴾ المراد بالجيب هو المعروف ، وفى القصص : ﴿ اسلك يدك فى جيبك ﴾ [القصص: ٣٢] . وفى ﴿ **أدخل** ﴾ من المبالغة ما لم يكن فى ﴿ **اسلك**﴾. ﴿ **تخرج بيضاء من غير سوء** ﴾ أى من غير برص أو نحوه من الآفات، فهو احتراس . وقوله: ﴿**تخرج**﴾ جواب : ﴿ **أدخل يدك** ﴾ . وقيل : فى الكلام حذف تقديره : أدخل يدك تدخل وأخرجها تخرج ، ولا حاجة لهذا الحذف ولا ملجئ إليه . قال المفسرون : كانت على موسى مدرعة من صوف لا كمّ لها ولا إزار ، فأدخل يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى تبرق كالبرق ، وقوله : ﴿ **فى تسع آيات**﴾ قال أبو البقاء : هو فى محل نصب على الحال من فاعل تخرج ، وفيه بعد. وقيل : متعلق بمحذوف ، أى اذهب فى تسع آيات. وقيل : متعلق بقوله : ﴿ **ألق عصاك** ﴾ و﴿ **أدخل يدك**﴾ فى جملة تسع آيات أو مع تسع آيات . وقيل: المعنى : فهما آيتان من تسع يعنى : العصا واليد ، فتكون الآيات إحدى عشرة : هاتان ، والفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب فى بواديهم ، والنقصان فى مزارعهم . قال النحاس : أحسن ما قيل فيه : أن هذه الآية يعنى اليد داخلة فى تسع آيات ، وكذا قال المهدوى والقشيرى . قال القشيرى : تقول : خرجت فى عشرة نفر ، وأنت أحدهم ، رأى خرجت عاشر عشرة ، ففى بمعنى من لقربها منها كما تقول : خذ لى عشرا من الإبل فيها فحلان ، أى منها. قال الأصمعى فى قول امرىء القيس :

وهل ينعمن من كان آخر عهده   ثلاثون شهرا فى ثلاثة أحوال

فى بمعنى من . وقيل : فى بمعنى مع ﴿ **إلى فرعون وقومه** ﴾ قال الفراء : فى الكلام إضمار ، أى إنك مبعوث،أو مرسل إلى فرعون وقومه ، وكذا قال الزجاج : ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ الجملة تعليل لما قبلها . ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة** ﴾ أى جاءتهم آياتنا التى على يد موسى حال كونها مبصرة ، أى واضحة بينة كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ [الإسراء : ٥٩] . قال الأخفش : ويجوز أن تكون بمعنى مبصرة على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، وقد تقدّم تحقيق الكلام فى هذا . وقرأ علىّ بن الحسين وقتادة : « **مبصرة** » بفتح الميم والصاد، أى مكانا يكثر فيه التبصر ، كما يقال : الولد مجبنة ومبخلة ﴿ **قالوا هذا سحر مبين** ﴾ أى لما جاءتهم قالوا هذا القول ، أى سحر واضح .

﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم** ﴾ أى كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها فالواو للحال ، وانتصاب ﴿ **ظلما وعلوا** ﴾ على الحال ، أى ظالمين عالين ، ويجوز أن ينتصبا على العلة ، أى الحامل لهم على ذلك الظلم والعلوّ ، ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف ، أى

(١) الترمذى فى الزهد (٣٣١٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجه فى الزهد (٤١٩٠) وأحمد ٥/ ١٧٣ نجد هذه الجملة من قــول أبى ذر .

جحدوا بها جحودا ظلما وعلوا . قال أبو عبيدة: والباء فى ﴿ **وجحدوا بها** ﴾ زائدة ، أى وجحدوها . قال الزجاج : التقدير : وجحدوا بها ظلما وعلوّا ، أى شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند اللّه ﴿ **فانظر** ﴾ يا محمد ، ﴿ **كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أى تفكر فى ذلك فإن فيه معتبرا للمعتبرين ؛ وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم فى البحر على تلك الصفة الهائلة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار** ﴾ يعنى تبارك وتعالى : نفسه كان نور ربّ العالمين فى الشجرة ﴿**ومن حولها** ﴾ يعنى : الملائكة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : كان اللّه فى النور نودى من النور ﴿ **ومن حولها** ﴾ قال : الملائكة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا قال : ناداه اللّه وهو فى النور . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **أن بورك من فى النار** ﴾ قال : بوركت النار . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : فى مصحف أبىّ بن كعب . «بوركت النار ومن حولها » أما النار فيزعمون أنها نور ربّ العالمين . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **أن بورك** ﴾ قال : قدّس .

وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق أبى عبيدة عن أبى موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول اللّه ﷺ فقال : « إن اللّه لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كلّ شىء أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ **أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان اللّه ربّ العالمين** ﴾ . والحديث أصله مخرّج فى صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرّة (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه ، فقال له : أدخل يدك فى جيبك فأدخلها . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله: ﴿ **واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا** ﴾ قال : تكبروا وقد استيقنتها أنفسهم ، وهذا من التقديم والتأخير .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ** ﴾

(١) أحمد ٤/٤٠٥ ومسلم فى الإيمان (١٧٩/٢٩٣) وابن ماجه فى المقدمة (١٩٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/٢٩٦ .

سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع فى قصة داود وابنه سليمان ، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هى كالبيان والتقرير لقوله : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ والتنوين فى ﴿ **علما** ﴾ إما للنوع ، أى طائفة من العلم ، أو للتعظيم ، أى علما كثيرا ، والواو فى قوله : ﴿ **وقالا الحمد للّه** ﴾ للعطف على محذوف ؛ لأن هذا المقام مقام الفاء ؛ فالتقدير : ولقد آتيناهما علما فعملا به وقالا الحمد للّه ، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبوقا بعمل القلب ، وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية ﴿ **الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ أى فضلنا بالعلم والنبوّة وتسخير الطير والجنّ والإنس ولم يفضلوا أنفسهم على الكلّ تواضعا منهم . وفى الآية دليل على شرف العلم وارتفاع محله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم التى ينعم اللّه بها على عباده، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من العباد ، ومنح شرفا جليلا .

﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ أى وراثة العلم والنبوة . قال قتادة والكلبى : كان لداود تسعة عشر ولدا ذكرا فورث سليمان من بينهم نبوّته ، ولو كان المراد : وراثة المال لم يخصّ سليمان بالذكر؛ لأن جميع أولاده فى ذلك سواء ، وكذا قال جمهور المفسرين ، فهذه الوراثة هى وراثة مجازية كما فى قوله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء »(١). ﴿ **وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير** ﴾ قال سليمان هذه المقالة مخاطبا للناس تحدّثا بما أنعم اللّه به عليه وشكر النعمة التى خصه بها . وقدّم منطق الطير ؛ لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره . قال الفراء : منطق الطير كلام الطير فجعل كمنطق الرجل ، وأنشد قول حميد بن ثور :

عجيب لها أن يكون غناؤها فصيحا ولم يغفر بمنطقها فما

---

(١) أحمد ٥/١٩٦ وأبو داود فى العلم (٣٦٤١) وابن ماجه فى المقدمة (٢٢٣) والدارمى ١/٩٨. كلهم عن أبى الدرداء .

ومعنى الآية : فهمنا ما يقول الطير . قال جماعة من المفسرين : إنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير؛ لأنه كان جندا من جنده يسير معه لتظليله من الشمس . وقال قتادة والشعبى : إنما علم منطق الطير خاصة ولا يعترض ذلك بالنملة فإنها من جملة الطير ، وكثيرا ما تخرج لها أجنحة فتطير، وكذلك كانت هذه النملة التى سمع كلامها وفهمه ، ومعنى ﴿ **وأوتينا من كل شيء** ﴾ :كل شى تدعو إليه الحاجة ، كالعلم والنبوّة والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والأرض . وجاء سليمان بنون العظمة ، والمراد : نفسه بيانا لحاله من كونه مطاعا لا يخالف ، لا تكبرا وتعظيما لنفسه ، والإشارة بقوله : ﴿ **إن هذا** ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من التعليم والإيتاء ﴿ **لهو الفضل المبين** ﴾ أى الظاهر الواضح الذى لا يخفى على أحد ، أو المظهر لفضيلتنا .

﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير** ﴾ الحشر: الجمع ، أى جمع له جنوده من هذه الأجناس. وقد أطال المفسرون فى ذكر مقدار جنده وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ولا تصحّ من جهة النقل ، ولو صحت لكان فى القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ أى لكلّ طائفة منهم وزعة تردّ أولهم على آخرهم فيقفون على مراتبهم، يقال : وزعه يزعه وزعا : كفه ، والوازع فى الحرب : الموكل بالصفوف يزع من تقدّم منهم ، أى يردّه ، ومنه قول النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع

وقول الآخر :

ومن لم يزعه لبه وحياؤه ... فليس له من شيب فوديه وازع

وقول الآخر :

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس إلا وافر العقل كامله

وقيل : من التوزيع بمعنى : التفريق ، يقال : القوم أوزاع ، أى طوائف . ﴿ **حتى إذا أتوا على واد النمل** ﴾ حتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام ويكون غاية لما قبلها ، والمعنى : فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية وهو إتيانهم على واد النمل ، أى فهم يسيرون ممنوعا بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ ، و﴿ **على واد النمل** ﴾ متعلق بـ ﴿ **أتوا** ﴾ وعدى بعلى ؛ لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون . والمعنى : أنهم قطعوا الوادى وبلغوا آخره ، ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعا للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله : ﴿الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ [الفجر : ٩] . إلا الكسائى فإنه وقف بالياء ، قال : لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل . قال كعب : واد النمل بالطائف . وقال قتادة ومقاتل : هو بالشام ﴿ **قالت نملة** ﴾ هذا جواب إذا ، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادى فرت ونبهت

سائر النمل منادية لها قائلة : ﴿ **يأيها النمل ادخلوا مساكنكم** ﴾ جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب ، والمساكن هى الأمكنة التى يسكن النمل فيها . قيل : وهذه النملة التى سمعها سليمان هى أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند إليها . وردّ هذا أبو حيان فقال : لحاق التاء فى قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة ، بل يصحّ أن يقال فى المذكر : قالت ، لأن نملة وإن كانت بالتاء فهى مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه ، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى ، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة ، ولا بالتعرّض لاسم النملة ولما ذكر من القصص الموضوعة والأحاديث المكذوبة . قرأ الحسن وطلحة ومعمر بن سليمان: « نملة » والنمل بضم الميم وفتح النون بزنة رجل وسمرة . وقرأ سليمان التيمى بضمتين فيهما .

﴿ **لا يحطمنكم سليمان وجنوده** ﴾ الحطم : الكسر ، يقال : حطمته حطما ، أى كسرته كسرا ، وتحطم : تكسر ، وهذا النهى هو فى الظاهر للنمل ، وفى الحقيقة لسليمان ، فهو من باب : لا أرينك ها هنا ، ويجوز أن يكون بدلا من الأمر، ويحتمل أن يكون جوابا للأمر . قال أبو حيان : أما تخريجه على جواب الأمر فلا يكون إلا على قراءة الأعمش ، فإنه قرأ : « لا يحطمكم » بالجزم بدون نون التوكيد ، وأما مع وجود نون التوكيد فلا يجوز ذلك إلا فى الشعر. قال سيبويه : وهو قليل فى الشعر ، شبهوه بالنهى حيث كان مجزوما . وقرأ أبىّ : «ادخلوا مساكنكنّ » وقرأ شهر بن حوشب: « مسكنكم » وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى الهمدانى: « لا يحطمنكم » بضمّ الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء ، وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب وأبو عمرو فى رواية بسكون نون التوكيد ، وجملة : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **يحطمنكم** ﴾ أى لا يشعرون بحطمكم ولا يعلمون بمكانكم ، وقيل : إن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها ، وهو بعيد .

﴿ **فتبسم ضاحكا من قولها** ﴾ قرأ ابن السميقع : « ضحكا » وعلى قراءة الجمهور يكون ﴿**ضاحكا** ﴾ حالا مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم . وقيل : هى حال مقدّرة لأن التبسم أوّل الضحك. وقيل: لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينا له. وقيل : إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير، وعلى قراءة ابن السميقع يكون « ضحكا » مصدرا منصوبا بفعل محذوف أو فى موضع الحال ، وكان ضحك سليمان تعجبا من قولها وفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل ﴿ **وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ** ﴾ قد تقدّم بيان معنى أوزعنى قريبا فى قوله: ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال فى الكشاف: وحقيقة أوزعنى : اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عنى حتى لا أنفك شاكرا لك. انتهى[1]. قال الواحدى : أوزعنى ، أى ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ ، يقال : فلان موزع بكذا ؛ أى مولع به . انتهى . قال القرطبى : وأصله من وزع ، فكأنه قال : كفنى عما يسخطك . انتهى[2] .

(١) الكشاف ٣/ ٣٥٧.
(٢) القرطبى ٧/ ٤٨٩٣ .

والمفعول الثانى لأوزعنى هو : أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ . وقال الزجاج : إن معنى ﴿**أوزعنى**﴾: امنعنى أن أكفر نعمتك ، وهو تفسير باللازم ، ومعنى ﴿ **وعلى والدى** ﴾ : الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه ، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه ، وذلك يستوجب الشكر منه لله سبحانه ، ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه إلى سوابقها ، ولا سيما النعم الدينية ، فقال : ﴿ **وأن أعمل صالحا ترضاه** ﴾ أى عملا صالحا ترضاه منى . ثم دعا أن يجعله الله سبحانه فى الآخرة داخلا فى زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التى يتعلق الطلب بها ، فقال: ﴿**وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ والمعنى : أدخلنى فى جملتهم ، وأثبت اسمى فى أسمائهم ، واحشرنى فى زمرتهم إلى دار الصالحين وهى الجنة .

اللهم وإنى أدعوك بما دعاك به هذا النبىّ الكريم ، فتقبل ذلك منى وتفضل علىّ به ، فإنى وإن كنت مقصرا فى العمل ففضلك هو سبب الفوز بالخير ، فهذه الآية منادية بأعلى صوت وأوضح بيان بأن دخول الجنة التى هى دار المؤمنين بالتفضل منك لا بالعمل منهم ، كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه فى الصحيح: «سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله »، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » [(١)]. فإذا لم يكن إلا تفضلك الواسع فترك طلبه منك عجز، والتفريط فى التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع .

ثم شرع سبحانه فى ذكر قصة بلقيس وما جرى بينها وبين سليمان ، وذلك بدلالة الهدهد قال : ﴿ **وتفقد الطير** ﴾ التفقد : تطلب ما غاب عنك وتعرف أحواله ، والطير: اسم جنس لكل ما يطير ، والمعنى : أنه تطلب ما فقد من الطير وتعرف حال ما غاب منها ، وكانت الطير تصحبه فى سفره ، وتظله بأجنحتها ﴿ **فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ أى ما للهدهد لا أراه ؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذى تستعمله العرب كثيرا ، وقيل : لا حاجة إلى ادّعاء القلب ، بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد، كأنه قال: ما لى لا أراه؟ هل ذلك لساتر يستره عنى ؟ أو لشىء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب فقال : ﴿ **أم كان من الغائبين** ﴾ و « أم » هى المنقطعة التى بمعنى الإضراب . قرأ ابن كثير وابن محيصن وهشام وأيوب « مالى » بفتح الياء ، وكذلك قرؤوا فى يس : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ [يس : ٢٢] بفتح الياء وقرأ بإسكانها فى الموضعين حمزة والكسائى [(٢)] . ويعقوب ، وقرأ الباقون بفتح التى فى يس وإسكان التى هنا . قال أبو عمرو : لأن هذه التى هنا استفهام ، والتى فى يس نفى ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان ﴿**لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه**﴾ اختلفوا فى هذا العذاب الشديد ما هو ؟ فقال مجاهد وابن جريج : هو أن ينتف ريشه جميعا . وقال يزيد بن رومان : هو أن ينتف ريش

---

(١) أحمد ٦/ ١٢٥ والبخارى فى الرقاق (٦٤٦٤) ومسلم فى المنافقين (٢٨١٨/ ٧٨) .كلهم عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) الكسائى ممن يقرؤها بالفتح فى الموضعين كما ذكر القرطبى ٧/ ٤٨٩٥ .

جناحيه . وقيل : هو أن يحبسه مع أضداده . وقيل : أن يمنعه من خدمته ، وفى هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد . وقوله : ﴿ **عذابا** ﴾ اسم مصدر على حذف الزوائد كقوله : ﴿أنبتكم من الأرض نباتا﴾ [نوح : ١٧] . ﴿ **أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشدّدة بعدها نون الوقاية ، وقرأ الباقون بنون مشددة فقط ، وهى نون التوكيد، وقرأ عيسى بن عمر بنون مشدّدة مفتوحة غير موصولة بالياء ، والسلطان المبين هو: الحجة البينة في غيبته . ﴿ **فمكث غير بعيد** ﴾ أى الهدهد مكث زمانا غير بعيد . قرأ الجمهور : « مكث » بضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها ، ومعناه فى القراءتين : أقام زمانا غير بعيد. قال سيبويه: مكث يمكث مكوثا كقعد يقعد قعودا . وقيل : إن الضمير فى مكث لسليمان . والمعنى : بقى سليمان بعد التفقد والتوعد زمانا غير طويل ، والأوّل أولى ﴿ **فقال أحطت بما لم تحط به** ﴾ أى علمت مالم تعلمه من الأمر ، والإحاطة : العلم بالشيء من جميع جهاته ، ولعل فى الكلام حذفا ، والتقدير : فمكث الهدهد غير بعيد فجاء فعوتب على مغيبه ، فقال معتذرا عن ذلك : ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾ . قال الفراء : ويجوز إدغام التاء فى الطاء ، فيقال : أحطّ ، وإدغام الطاء فى التاء فيقال أحتّ ﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ قرأ الجمهور من سبأ بالصرف على أنه اسم رجل ، نسب إليه قوم ، ومنه قول الشاعر:

الواردون وتيم فى ذرى سبأ   قد غض أعناقهم جلد الجواميس

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الهمزة وترك الصرف على أنه اسم مدينة ، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل وقال : سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن بينهما وبين صنعاء ثلاثة أيام . وقيل: هو اسم امرأة سميت بها المدينة . قال القرطبى : والصحيح أنه اسم رجل كما فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مسيك المرادى. قال ابن عطية: وخفى هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء. وزعم الفراء أن الرؤاسى سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال : ما أدرى ما هو ؟ قال النحاس وأبو عمرو : أجلّ من أن يقول هذا ، قال : والقول فى سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل اسم رجل، فإن صرفته فلأنه قد صار اسما للحىّ، وإن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة مثل ثمود، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف . انتهى . وأقول : لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس ، وهو أيضا اسم رجل من قحطان ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، ولكن المراد هنا : أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه فى مدينة سبأ مما وصفه ، وسيأتى فى آخر هذا البحث من المأثور ما يوضح هذا ويؤيده ، ومعنى الآية : أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين . والنبأ هو : الخبر الخطير الشأن .

فلما قال الهدهد لسليمان ما قال ، قال له سليمان : وما ذاك ؟ فقال : ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم** ﴾ وهى بلقيس بنت شرحبيل ، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ ، والجملة هذه كالبيان ، والتفسير للجملة التى قبلها ، أى ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء ﴿ **وأوتيت من**

كلّ شيء﴾ فيه مبالغة ، والمراد : أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التى تحتاجها . وقيل : المعنى : أوتيت من كل شيء فى زمانها شيئا ، فحذف شيئا ،لأن الكلام قد دلّ عليه ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ أى سرير عظيم ، ووصفه بالعظم لأنه ـ كما قيل ـ كان من ذهب طوله ثمانون ذراعا ، وعرضه أربعون ذراعا ، وارتفاعه فى السماء ثلاثون ذراعا مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر. وقيل : المراد بالعرش هنا : الملك ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **أيكم يأتينى بعرشها** ﴾ قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها امرأة ، ملكة على مدائن اليمن ذات ملك عظيم وسرير عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار ﴿**وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون اللّه** ﴾ أى يعبدونها متجاوزين عبادة اللّه سبحانه ، قيل: كانوا مجوسا . وقيل : زنادقة . ﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم**﴾ التى يعملونها وهى عبادة الشمس وسائر أعمال الكفر ﴿**فصدهم عن السبيل**﴾ أى صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح ، وهو الإيمان باللّه وتوحيده ﴿ **فهم لا يهتدون** ﴾ إلى ذلك .

﴿ **ألا يسجدوا** ﴾ قرأ الجمهور بتشديد ﴿ **ألا** ﴾ . قال ابن الأنبارى : الوقف على فهم لا يهتدون غير تام عند من شدد ألا ؛ لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا . قال النحاس : هى أن دخلت عليها لا ، وهى فى موضع نصب . قال الأخفش : أى زين لهم أن يسجدوا للّه بمعنى: لئلا يسجدوا للّه. وقال الكسائى: هى فى موضع نصب بصدّهم؛ أى فصدهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا ، فهو على الوجهين مفعول له . وقال اليزيدى: إنه بدل من أعمالهم فى موضع نصب. وقال أبو عمرو : فى موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل : العامل فيها ﴿ **لا يهتدون** ﴾ أى فهم لا يهتدون أن يسجدوا للّه، وتكون لا على هذا زائدة كقوله: ﴿ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] . وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة ؛ لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود : إما بالتزيين أو بالصد ، أو بمنع الاهتداء ، وقد رجح كونه علة للصدّ الزجاج ، ورجح الفراء كونه علة لزين ، قال : زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا ، ثم حذفت اللام . وقرأ الزهرى والكسائى بتخفيف « ألا » قال الكسائى : ما كنت أسمع الأشياخ يقرؤونها إلا بالتخفيف على نية الأمر ، فتكون « ألا » على هذه القراءة حرف تنبيه واستفتاح وما بعدها حرف نداء ، واسجدوا فعل أمر ، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ألا يا اسجدوا ، ولكن الصحابة رضى اللّه عنهم أسقطوا الألف من يا وهمزة الوصل من اسجدوا خطأ ووصلوا الياء بسين اسجدوا ، فصارت صورة الخط ألا يسجدوا ، والمنادى محذوف ، وتقديره : ألا يا هؤلاء اسجدوا وقد حذفت العرب المنادى كثيرا فى كلامها ، ومنه قول الشاعر :

ألا يا اسلمى يا دار ميّ على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

وقول الآخر :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقول الآخر أيضا :

ألا يا اسلمى يا هند هند بنى بكر

وهو كثير فى أشعارهم . قال الزجاج : وقراءة التخفيف تقتضى وجوب السجود دون قراءة التشديد ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد قراءة التشديد . قال الزجاج : ولقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع فى وسطه ، وكذا قال النحاس ، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿ **ألا يسجدوا** ﴾ معترضة من كلام الهدهد ، أو من كلام سليمان ، أو من كلام اللّه سبحانه . وفى قراءة عبد اللّه بن مسعود : « هل لا تسجدوا » بالفوقية ، وفى قراءة أبى : «ألا تسجدوا » بالفوقية أيضا . ﴿ **الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض** ﴾ أى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما ، يقال : خبأت الشيء أخبؤه خبأ ، والخبء ما خبأته . قال الزجاج : جاء فى التفسير أن الخبء ها هنا بمعنى : القطر من السماء والنبات من الأرض . وقيل : خبء الأرض : كنوزها ونباتها . وقال قتادة : الخبء : السر . قال النحاس : أى ما غاب فى السموات والأرض . وقرأ أبىّ وعيسى بن عمر : « الخب » بفتح الباء من غير همز تخفيفا ، وقرأ عبد اللّه وعكرمة ومالك بن دينار : « الخبا » بالألف. قال أبو حاتم : وهذا لا يجوز فى العربية . وردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن . وفى قراءة عبد اللّه : «يخرج الخب من السموات والأرض » . قال الفراء : ومن وفى يتعاقبان ، والموصول يجوز أن يكون فى محل جرّ نعتا للّه سبحانه ، أو بدلا منه ، أو بيانا له ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على المدح ، ويجوز أن يكون فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . وجملة : ﴿ **ويعلم ما تخفون وما تعلنون** ﴾ معطوفة على يخرج ، قرأ الجمهور بالتحتية فى الفعلين، وقرأ الجحدرى وعيسى بن عمر وحفص والكسائى بالفوقية للخطاب ، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدّمة ضمائر غيبة ، وأما القراءة الثانية : فلكون قراءة الزهرى والكسائى فيها الأمر بالسجود والخطاب لهم بذلك، فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب. والمعنى: أن اللّه سبحانه يخرج ما فى هذا العالم الإنسانى من الخفاء بعلمه له كما يخرج ما خفى فى السموات والأرض .

ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته وجليل سلطانه ووجوب توحيده وتخصيصه بالعبادة قال : ﴿ **اللّه لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم** ﴾ قرأ الجمهور ﴿**العظيم**﴾ : بالجرّ نعتا للعرش ، وقرأ ابن محيصن بالرفع نعتا للربّ ، وخصّ العرش بالذكر ؛ لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك فى المرفوع إلى رسول اللّه ﷺ .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عمر بن عبد العزيز ؛ أنه كتب : إن اللّه لم ينعم على عبد نعمة فحمد اللّه عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب اللّه المنزل . قال الله عزّ وجل : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد للّه الذى**

obeikandi.com

فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ وأى نعمة أفضل مما أعطى داود وسليمان ؟ أقول : ليس فى الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه اللّه ، والذى تدلّ عليه أنهما حمدا اللّه سبحانه على ما فضلهما به من النعم ، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته ؟ وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ قال : ورثه نبوّته وملكه وعلمه . وأخرج ابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد ، وابن أبى حاتم عن أبى الصديق الناجى قال : خرج سليمان يستسقى بالناس ، فمرّ على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك ، فإما أن تسقينا وإما أن تهلكنا ، فقال سليمان للناس : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم [١] . وأخرج الحاكم فى المستدرك عن جعفر بن محمد قال : أعطى سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر ، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والدواب والطير والسباع ، وأعطى كل شىء ، ومنطق كل شىء ، وفى زمانه صنعت الصنائع المعجبة ، حتى إذا أراد اللّه أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يستودع علم اللّه وحكمته أخاه ، وولد داود كانوا أربعمائة وثمانين رجلا أنبياء بلا رسالة [٢] . قال الذهبى : هذا باطل ، قد رويت قصص فى عظم ملك سليمان لا تطيب النفس بذكر شىء منها ، فالإمساك عن ذكرها أولى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال : يدفعون . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ قال : جعل لكل صنف وزعة تردّ أولاها على أخراها لئلا تتقدّمه فى السير كما تصنع الملوك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **أوزعنى** ﴾ قال : ألهمنى . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل: كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : إن سليمان نزل منزلا فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد يدلّ سليمان على الماء ، فأراد أن يسأله عنه ففقده ، قيل : كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب ويضع له الصبى الحبالة فيغيبها فيصيده ؟ فقال : إذا جاء القضاء ذهب البصر [٣] . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا** ﴾ قال : أنتف ريشه كله ، وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين ، وروى ابن أبى حاتم عن الحسن قال : كان اسم هدهد سليمان : غبر . وأقول: من أين جاء علم هذا للحسن رحمه اللّه، وهكذا ما رواه عنه ابن عساكر أن اسم النملة: حرس ، وأنها من قبيلة يقال لها : بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذئب ،

---

(١) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦١٢٠).

(٢) الحاكم ٢/ ٥٨٨.

(٣) ابن أبى شيبة فى الفضائل (١١٩٠٢) وصححه الحاكم ٢/ ٤٠٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

وهو رحمه الله أورع الناس عن نقل الكذب ، ونحن نعلم أنه لم يصحّ عن رسول الله ﷺ فى ذلك شىء ، ونعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان أو بأحد من أصحابه ، فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب ، وقد أمرنا أن لا نصدّقهم ولا نكذبهم ، فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روى : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » (١) . فليس ذلك فيما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك ، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم . وقد كرّرنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ قال : خبر الحق الصدق البين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس : كلّ سلطان فى القرآن حجة وذكر هذه الآية ، ثم قال : وأىّ سلطان كان للهدهد ؟ يعنى : أن المراد بالسلطان :الحجة لا السلطان الذى هو الملك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾ قال : اطلعت على ما لم تطلع عليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **وجئتك من سبأ** ﴾ قال : سبأ بأرض اليمن ، يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ **بنبأ يقين** ﴾ قال : بخبر حقّ .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم** ﴾ قال : كان اسمها : بلقيس بنت ذى شيرة ، وكانت صلباء شعراء . وروى عن الحسن وقتادة وزهير بن محمد أنها : بلقيس بنت شراحيل ، وعن ابن جريج : بنت ذى شرح . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه وابن عساكر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إحدى أبوى بلقيس كان جنيا » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ قال : سرير كريم من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالى الثمن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **يخرج الخبء** ﴾ قال : يعلم كلّ خبيئة فى السماء والأرض .

﴿ **قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا** ﴾

---

(١) أخرج أحمد ٢/ ٢٠٢ (٣٤٦١) والترمذى فى العلم (٢٦٦٩) وقال : « . . هذا حديث حسن صحيح » عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

(٢) ابن جرير ١٩/ ٩٥.

بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

جملة : ﴿ **قال سننظر** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدرّ ، أى قال سليمان للهدهد : سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة ﴿ **أصدقت** ﴾ فيما قلت ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ هذه الجملة الاستفهامية فى محل نصب على أنها مفعول ﴿ **سننظر** ﴾ ، وأم هى المتصلة ، وقوله : ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ أبلغ من قوله : أم كذبت ، لأن المعنى : من الذين اتصفوا بالكذب وصار خلقا لهم . والنظر: هو التأمل والتصفح . وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار والكشف عن الحقائق وعدم قبول خبر المخبرين تقليدا لهم واعتمادا عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه . ثم بين سليمان هذا النظر الذى وعد به فقال : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم** ﴾ أى إلى أهل سبأ . قال الزجاج : فى ﴿ **ألقه** ﴾ خمسة أوجه : إثبات الياء فى اللفظ وحذفها ، وإثبات الكسرة للدلالة عليها ، وبضم الهاء وإثبات الواو ، وبحذف الواو وإثبات الضمة للدلالة عليها ، وبإسكان الهاء . وقرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو وحمزة وأبو بكر . وقرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء . وروى عن هشام وجهان : إثبات الياء لفظا وحذفها مع كسر الهاء . وقرأ الباقون بإثبات الياء فى اللفظ ، وقوله : ﴿ **بكتابى هذا** ﴾ يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب ، وأن يكون بدلا منه ، وأن يكون بيانا له . وخص الهدهد بإرساله بالكتاب ؛ لأنه المخبر بالقصة ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضى كونه أهلا للرسالة ﴿ **ثم تولّ عنهم** ﴾ أى تنح عنهم ، أمره بذلك لكون التنحى بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التى يتأدب بها رسل الملوك . والمراد : التنحى إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع . وقيل : معنى التولى : الرجوع إليه ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **فانظر ماذا يرجعون** ﴾ أى تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول وما يتراجعونه بينهم من الكلام .

﴿ **قالت** ﴾ أى بلقيس ﴿ **يأيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم** ﴾ فى الكلام حذف ،

والتقدير : فذهب الهدهد فألقاه إليهم ، فسمعها تقول : ﴿ **يأيها الملأ** ﴾ إلخ . ووصفت الكتاب بالكريم ؛ لكونه من عند عظيم فى نفسها فعظمته إجلالا لسليمان . وقيل : وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن . وقيل : وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوما بخاتم سليمان ، وكرامة الكتاب ختمه كما روى ذلك مرفوعا (١).

ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت : ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم اللّه الرحمن الرحيم** ﴾ أى وإن ما اشتمل عليه من الكلام وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية . ﴿ **أن لا تعلوا علىّ** ﴾ أى لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك ، و«أن» هى المفسرة . وقيل : مصدرية ، ولا ناهية . وقيل : نافية ، ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هو أن لا تعلوا . قرأ الجمهور : ﴿ **إنه من سليمان وإنه** ﴾ بكسرهما على الاستئناف ، وقرأ عكرمة وابن أبى عبلة بفتحهما على إسقاط حرف الجرّ ، وقرأ أبى : « إن من سليمان وإن بسم اللّه » بحذف الضميرين وإسكان النونين على أنهما مفسرتان ، وقرأ عبد اللّه بن مسعود : « وإنه من سليمان » بزيادة الواو ، وروى ذلك أيضا عن أبى . وقرأ أشهب العقيلى وابن السميقع : « أن لا تغلوا » بالغين المعجمة من الغلوّ ، وهو تجاوز الحدّ فى الكبر ﴿ **وأتونى مسلمين** ﴾ أى منقادين للدين مؤمنين بما جئت به .

﴿ **قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى** ﴾ الملأ : أشراف القوم ، والمعنى : يأيها الأشراف ، أشيروا على ، وبينوا لى الصواب فى هذا الأمر ، وأجيبونى بما يقتضيه الحزم . وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون فى ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشراف قومها وقالت لهم : **يأيها الملأ** إنى ألقى إلى ، يأيها الملأ أفتونى . وكرر « قالت » لمزيد العناية بما قالته لهم . ثم زادت فى التأدب واستجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح ويشيروا عليها بالصواب فقالت : ﴿ **ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ أى ما كنت مبرمة أمرا من الأمور حتى تحضروا عندى وتشيروا علىّ ، فقالوا مجيبين لها : ﴿ **نحن أولو قوة** ﴾ فى العدد والعدة ﴿ **وأولو بأس شديد** ﴾ عند الحرب واللقاء لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا وبلدنا ومملكتنا . ثم فوضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها وقوّة عقلها فقالوا : ﴿ **والأمر إليك** ﴾ أى موكول إلى رأيك ونظرك ﴿ **فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ أى تأملى ماذا تأمرينا به فنحن سامعون لأمرك مطيعون له ؟ فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها . ﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها** ﴾ أى إذا دخلوا قرية من القرى خرّبوا مبانيها ،

---

(١) من ذلك ما أخرج البخارى فى اللباس (٥٨٧٢) ومسلم فى اللباس (٢٠٩٢/٥٦) وأبو داود فى الخاتم (٤٢١٤) والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح ». كلهم عن أنس بن مالك أن نبى الله ﷺ أراد أن يكتب إلى رهط ـ أو أناس ـ من الأعاجم فقيل له : إنهم لا يقبلون كتابًا إلا عليه خاتم . . . . . الحديث .

وغيروا مغانيها، وأتلفوا أموالها ، وفرّقوا شمل أهلها ﴿ **وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ أى أهانوا أشرافها وحطوا مراتبهم ، فصاروا عند ذلك أذلة ، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتمّ لهم الملك وتستحكم لهم الوطأة وتتقرّر لهم فى قلوبهم المهابة . قال الزجاج: أى إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة . والمقصود من قولها هذا : تحذير قومها من مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم ، وقد صدقها اللّه سبحانه فيما قالت ، فقال سبحانه : ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ أى مثل ذلك الفعل يفعلون . قال ابن الأنبارى : الوقف على قوله : ﴿ **وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ وقف تام ، فقال اللّه عزّ وجلّ تحقيقا لقولها : ﴿**وكذلك يفعلون** ﴾. وقيل : هذه الجملة من تمام كلامها ، فتكون من جملة مقول قولها ، وعلى القول الأول تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

ثم لما قدّمت لهم هذه المقدمة ، وبينت لهم ما فى دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة ، وأوضحت لهم وجه الرأى عندها وصرحت لهم بصوابه فقالت : ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية** ﴾ أى إنى أجرّب هذا الرجل بإرسال رسلى إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال ، فإن كان ملكا أرضيناه بذلك وكفينا أمره ، وإن كان نبيا لم يرضه ذلك ؛ لأن غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين فلا ينجينا منه إلا إجابته ومتابعته والتدين بدينه وسلوك طريقته؛ولهذا قالت:﴿**فناظرةبم يرجع المرسلون**﴾ الفاء للعطف على مرسلة، و ﴿**بم**﴾ متعلق بـ ﴿ **يرجع** ﴾، والمعنى: إنى ناظرة فيما يرجع به رسلى المرسلون بالهدية من قبول أو رد فعاملة بما يقتضيه ذلك ، وقد طوّل المفسرون فى ذكر هذه الهدية ، وسيأتى فى آخر البحث بيان ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب والصحة.

﴿ **فلما جاء سليمان** ﴾ أى فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان ، والمراد بهذا المضمر : الجنس ، فلا ينافى كونهم جماعة كما يدل عليه قولها : ﴿**بم يرجع المرسلون** ﴾ وقرأ عبد اللّه : « فلما جاؤوا سليمان » أى الرسل ، وجملة : ﴿ **قال أتمدونن بمال** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر والاستفهام للاستنكار ، أى قال منكرا لإمدادهم له بالمال مع علوّ سلطانه وكثرة ماله . وقرأ حمزة بإدغام نون الإعراب فى نون الوقاية ، والباقون بنونين من غير إدغام ، وأما الياء فإن نافعا وأبا عمرو وحمزة يثبتونها وصلا ويحذفونها وقفا ، وابن كثير يثبتها فى الحالين ، والباقون يحذفونها فى الحالين . وروى عن نافع أنه يقرأ بنون واحدة ﴿ **فما آتانى اللّه خير مما آتاكم** ﴾ أى ما آتانى من النبوة والملك العظيم والأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذى هذه الهدية من جملته . قرأ أبو عمرو ونافع وحفص ﴿ **آتانى اللّه** ﴾ بياء مفتوحة وقرأ يعقوب بإثباتها فى الوقف وحذفها فى الوصل ، وقرأ الباقون بغير ياء فى الوصل والوقف . ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدّم فقال: ﴿ **بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ توبيخا لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء، وأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتى ؛ لأن اللّه سبحانه قد أعطانى منها ما لم يعطه أحدا من العالمين ، ومع ذلك أكرمنى بالنبوّة . والمراد بهذا الإضراب من سليمان : بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم والحط عليهم.

﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها** ﴾ أى قال سليمان للرسول : ارجع إليهم ، أى إلى بلقيس وقومها ، خاطب المفرد ها هنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل ، إما لأن الذى سيرجع هو الرسول فقط ، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا وخاطبهم معه فيما سبق افتنانا فى الكلام . وقرأ عبد اللّه بن عباس : « ارجعوا » . وقيل : إن الضمير يرجع إلى الهدهد ، واللام فى « لنأتينهم » جواب قسم محذوف . قال النحاس : وسمعت ابن كيسان يقول : هى لام توكيد ولام أمر ولام خفض ، وهذا قول الحذاق من النحويين ؛ لأنهم يردّون الشىء إلى أصله ، وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب فى العربية ، ومعنى ﴿ **لا قبل لهم** ﴾: لا طاقة لهم بها ، والجملة فى محل جرّ صفة لجنود ﴿ **ولنخرجنهم** ﴾ معطوف على جواب القسم ، أى لنخرجنهم من أرضهم التى هم فيها ﴿ **أذلة** ﴾ أى حال كونهم أذلة بعد ما كانوا أعزة ، وجملة : ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ فى محل نصب على الحال . قيل : وهى حال مؤكدة لأن الصغار هو الذلة . وقيل : إن المراد بالصغار هنا : الأسر والاستعباد . وقيل : إن الصغار: الإهانة التى تسبب عنها الذلة .

ولما رجع الرسول إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان ، وأخبر جبريل سليمان بذلك فقال سليمان : ﴿ **يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها** ﴾ أى عرش بلقيس الذى تقدّم وصفه بالعظم ﴿**قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ أى قبل أن تأتينى هى وقومها مسلمين . قيل : إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه ويسلموا ؛ لأنها إذا أسلمت وأسلم قومها لم يحلّ أخذ أموالهم بغير رضاهم . قال ابن عطية : وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هى بعد مجىء هديتها وردّه إياها وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأولين . وقيل : استدعاء العرش قبل وصولها ليريها القدرة التى هى من عند اللّه ويجعله دليلا على نبوّته ، وقيل : أراد أن يختبر عقلها ، ولهذا قال : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ . . . . إلخ. وقيل : أراد أن يختبر صدق الهدهد فى وصفه للعرش بالعظم ، والقول الأوّل هو الذى عليه الأكثر .

﴿ **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ قرأ الجمهور بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء وسكون المثناة التحتية وبالتاء ، وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفى وابن السميقع وأبو السمال : « عفريه » بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء رويت هذه القراءة عن أبى بكر الصديق. وقرأ أبو حيان بفتح العين. والعفريت : المارد الغليظ الشديد . قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء : عفر وعفريه وعفريت. وقال قتادة : هو الداهية، وقيل: هو رئيس الجنّ . قال ابن عطية : وقرأت فرقة : « عفر» بكسر العين جمعه على عفار، ومما ورد من أشعار العرب مطابقا لقراءة الجمهور ما أنشده الكسائى :

فقال شيطان لهم عفريت ... ما لكم مكث ولا تبييت

ومما ورد على القراءة الثانية قول ذى الرمة :

كأنه كوكب فى إثـــر عفـــريه مصوّب فى سواد الليل منقضب

ومعنى قول العفريت : أنه سيأتى بالعرش إلى سليمان قبل أن يقوم من مجلسه الذى يجلس فيه للحكومة بين النـاس ﴿ **وإنى عليه لقوىّ أمين** ﴾ إنـى لقوىّ على حمله ، أمين على ما فيه . قيل : اسم هذا العفريت : كودن ذكره النحاس عن وهب بن منبه . وقال السهيلى : ذكوان . وقيل : اسمه : دعوان . وقيل : صخر . وقوله : ﴿ **آتيك** ﴾ فعل مضارع ، وأصله أأتيك بهمزتين ، فأبدلت الثانية ألفا . وقيل : هو اسم فاعل .

﴿ **قال الذى عنده علم بالكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك** ﴾ قال أكثر المفسرين : اسم هذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو من بنى إسرائيل ، وكان وزيرا لسليمان ، وكان يعلم اسم اللّه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . قال ابن عطيه وقالت فرقة : هو سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا للعفريت: كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت فقال له تحقيرا له : ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك** ﴾ وقيل هو جبريل ، وقيل : الخضرّ والأوّل أولى . وقد قيل : غير ذلك بما لا أصل له . والمراد بالطرف : تحريك الأجفان وفتحها للنظر وارتداده انضمامها. وقيل : هو بمعنى المطروف ، أى الشىء الذى ينظره . وقيل : هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك : افعل ذلك فى لحظة : قاله مجاهد . وقال سعيد بن جبير : إنه قال لسليمان : انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به ، فوضعه بين يديه والمعنى : حتى يعود إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء ، والأول أولى هـذه الأقوال ، ثم الثالث ﴿ **فلما رآه مستقرا عنده** ﴾ قيل : فى الآية حذف ، والتقدير : فأذن له سليمان فدعا اللّه فأتى به ، فلما رآه سليمان مستقرا عنده ، أى رأى العرش حاضرا لديه ﴿ **قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ الإشارة بقوله: ﴿ **هذا** ﴾ إلى حضور العرش، ﴿**ليبلونى** ﴾ أى ليختبرنى أشكره بذلك وأعترف أنه من فضله من غير حول منى ولا قوّة أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به . قال الأخفش : المعنى : لينظر أأشكر أم أكفر ، وقال غيره : معنى ﴿ **ليبلونى** ﴾ : ليتعبدنى ، وهو مجاز . والأصل فى الابتلاء : الاختبار . ﴿ **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها ، والمعنى : أنه لا يرجع نفع ذلك إلا إلى الشاكر ﴿ **ومن كفر** ﴾ بترك الشكر ﴿ **فإن ربى غنى** ﴾ عن شكره ﴿ **كريم** ﴾ فى ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه وسلبه ما أعطاه منها ، « وأم » فى ﴿ **أم أكفر** ﴾ هى متصلة .

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم** ﴾ يقول : كن قريبا منهم ﴿ **فانظر ماذا يرجعون** ﴾ فانطلق بالكتاب حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها فقرئ عليها فإذا فيه : ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم اللّه الرحمن الرحيم** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عنه : ﴿ **كتاب كريم** ﴾ قال : مختوم. وأخرج ابن أبى حاتم،

عن ميمون بن مهران ، أن النبى ﷺ كان يكتب : « باسمك اللهم » حتى نزلت ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ . وأخرج أبو داود فى مراسيله عن أبى مالك مرفوعا مثله [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أفتونى فى أمرى** ﴾ قال : جمعت رؤوس مملكتها فشاورتهم فى رأيها ، فأجمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه ، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت : أرسل إليه بهدية فإن قبلها فهو ملك أقاتله ، وإن ردّها تابعته فهو نبىّ ، فلما دنت رسلها من سليمان علم خبرهم ، فأمر الشياطين فموّهوا ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا وقصوره ذهب وفضة ، فلما دخلوا عليه بهديتها قال: ﴿ **أتمدونن بمال** ﴾ ثم قال سليمان: ﴿**أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين**﴾ فقال كاتب سليمان: ارفع بصرك ، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسرير ﴿ **قال نكروا لها عرشها**﴾ فنزع منه فصوصه ومرافقه وما كان عليه من شىء فقيل لها : ﴿ **أهكذا عرشك قالت كأنه هو** ﴾ وأمرالشياطين فجعلوا لها صرحا ممرّدا من قوارير وجعل فيها تماثيل السمك، فقيل لها : ﴿**ادخلى الصرح** ﴾ فكشفت عن ساقيها فإذا فيها شعر. فعند ذلك أمر بصنعة النورة فصنعت . فقيل لها : ﴿**إنه صرح ممرّد من قوارير قالت ربّ إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان للّه ربّ العالمين**﴾ .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها** ﴾ قال : إذا أخذوها عنوة أخربوها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : يقول الربّ تبارك وتعالى : ﴿**وكذلك يفعلون** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية** ﴾ قال : أرسلت بلبنة من ذهب ، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله : ﴿ **أتمدونن بمال** ﴾ الآية . وقال ثابت البنانى: أهدت له صفائح الذهب فى أوعية الديباج . وقال مجاهد : جوارى لباسهن لباس الغلمان ، وغلمان لباسهم لباس الجوارى. وقال عكرمة : أهدت مائتى فرس على كل فرس غلام وجارية ، وعلى كلّ فرس لون ليس على الآخر . وقال سعيد بن جبير : كانت الهدية جواهر ، وقيل : غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره .

وأخرج ابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ قال : طائعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عنه قال : اسم العفريت : صخر . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عنه أيضا : ﴿ **قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ قال : من مجلسك . وأخرج ابن أبى حاتم ، عنه أيضا : ﴿ **قال الذى عنده علم من الكتاب** ﴾ قال : هو آصف بن برخيا ، وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم . وأخرج أبو عبيد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال فى قراءة ابن مسعود : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا أنظر فى كتاب ربى ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » قال:

---

(١) أبو داود فى المراسيل (٣٥) وقال المحقق : « رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبى مالك وهو ثقة » .

فتكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش فى نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم . وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ **قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ قال : قال لسليمان : انظر إلى السماء ، قال : فما أطرف حتى جاءه به فوضعه بين يديه . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ، ولكن انشقت به الأرض ، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدى سليمان [١] .

﴿ **قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ التنكير : التغيير ، يقول : غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته . قيل : جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه . وقيل : غير بزيادة ونقصان . قال الفراء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له : إن فى عقلها شيئا ، فأراد أن يمتحنها . وقيل : خافت الجنّ أن يتزوّج بها سليمان ، فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبدا ، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ورجلها كرجل الحمار ، وقوله : ﴿ **ننظر** ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ، وبالجزم قرأ الجمهور ، وقرأ أبو حيان بالرفع على الاستئناف ﴿ **أتهتدى** ﴾ إلى معرفته ، أو إلى الإيمان بالله ﴿ **أم تكون من الذين لا يهتدون** ﴾ إلى ذلك .

﴿ **فلما جاءت** ﴾ أى بلقيس إلى سليمان ﴿ **قيل** ﴾ لها ، والقائل هو سليمان ، أو غيره بأمره : ﴿ **أهكذا عرشك** ﴾ لم يقل : هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقينا لها فلا يتم الاختبار لعقلها ﴿ **قالت كأنه هو** ﴾ قال مجاهد : جعلت تعرف وتنكر وتعجب من حضوره عند سليمان ، فقالت : كأنه هو . وقال مقاتل : عرفته ولكنه شبهت عليهم كما شبهوا عليها ، ولو قيل لها : أهذا عرشك ؟ لقالت : نعم . وقال عكرمة : كانت حكيمة ، قالت إن قلت : هو هو ، خشيت أن أكذب ، وإن قلت : لا ، خشيت أن أكذب ، فقالت : كأنه هو ، وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** ﴾ قيل : هو من كلام بلقيس ، أى أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ **وكنا مسلمين** ﴾ منقادين لأمره . وقيل : هو من قول سليمان ، أى أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبلها ، أى من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والقول الثانى أرجح من سائر الأقوال .

---

(١) ابن أبى شيبة فى الفضائل (٣ ـ ١١٩٠) .

﴿ **وصدّها ما كانت تعبد من دون اللّه** ﴾ هذا من كلام اللّه سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما ادّعته من الإسلام، ففاعل صدّ هو ما كانت تعبد ، أى منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبده ، وهى الشمس . قال النحاس : أى صدّها عبادتها من دون اللّه . وقيل : فاعل صد هو الله ، أى منعها الله ما كانت تعبد من دونه فتكون « ما » ، فى محل نصب . وقيل : الفاعل سليمان ، أى ومنعها سليمان ما كانت تعبد ، والأول أولى ، والجملة مستأنفة للبيان كما ذكرنا ، وجملة : ﴿ **إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ تعليل للجملة الأولى ، أى سبب تأخرها عن عبادة اللّه ، ومنع ما كانت تعبده عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر . قرأ الجمهور : ﴿**إنها**﴾ بالكسر . وقرأ أبو حيان بالفتح . وفى هذه القراءة وجهان : أحدهما : أن الجملة بدل مما كانت تعبد . والثانى : أن التقدير : لأنها كانت تعبد ، فسقط حرف التعليل .

﴿ **قيل لها ادخلى الصرح** ﴾. قال أبو عبيدة : الصرح : القصر . وقال الزجاج : الصرح: الصحن . يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها . قال ابن قتيبة : الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير وجعل تحته ماء وسمك . وحكى أبو عبيد فى الغريب أن الصرح : كل بناء عال مرتفع ، وأن الممرّد : الطويل ﴿ **فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها** ﴾ أى فلما رأت الصرح بين يديها حسبت أنه لجة ، واللجة : معظم الماء ، فلذلك كشفت عن ساقيها لتخوض الماء ، فلما فعلت ذلك ﴿ **قال** ﴾ سليمان: ﴿ **إنه صرح ممرّد من قوارير** ﴾ الممرّد : المحكوك المملس ، ومنه الأمرد، وتمرد الرجل إذا لم تخرج لحيته ، قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء : التى لا ورق لها . والممرّد أيضا : المطوّل ، ومنه قيل للحصن : مارد، ومنه قول الشاعر :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم ... قبيل الضحى فى السابرى الممرّد

أى الدروع الواسعة الطويلة . فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت واستسلمت ، قالت : ﴿**ربّ إنى ظلمت نفسى**﴾ أى بما كنت عليه من عبادة غيرك . وقيل : بالظن الذى توهمته فى سليمان ؛ لأنها توهمت أنه أراد تغريقها فى اللجة ، والأوّل أولى ﴿ **وأسلمت مع سليمان** ﴾ متابعة له داخلة فى دينه ﴿ **للّه ربّ العالمين** ﴾ التفتت من الخطاب إلى الغيبة ، قيل : لإظهار معرفتها باللّه ، والأولى أنها التفتت لما فى هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء ، ولكونه علما للذات . وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ قال : زيد فيه ونقص ﴿ **ننظر أتهتدى** ﴾ قال : لننظر إلى عقلها فوجدت ثابتة العقل .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها** ﴾ قال : من قول سليمان . وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد نحوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما رأته حسبته لجة**﴾ قال : بحرا. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى أثر طويل ؛

أن سليمان تزوّجها بعد ذلك. قال أبو بكر بن أبى شيبة: ما أحسنه من حديث. قال ابن كثير فى تفسيره بعد حكايته لقول أبى بكر بن أبى شيبة : بل هو منكر جدا ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، واللّه أعلم. والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب بما يوجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما اللّه فيما نقلا إلى هذه الأمة من بنى إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرّف وبدّل ونسخ. انتهى [١]. وكلامه هذا هو شعبة مما قد كررناه فى هذا التفسير ونبهنا عليه فى عدة مواضع ، وكنت أظنّ أنه لم ينبه على ذلك غيرى . فالحمد للّه على الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف .

وأخرج البخارى فى تاريخه ، والعقيلى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أوّل من صنعت له الحمامات سليمان » [٢] . وروى عنه مرفوعا من طريق أخرى رواها الطبرانى ، وابن عدّى فى الكامل ، والبيهقى فى الشعب بلفظ : « أوّل من دخل الحمام سليمان فلما وجد حرّه قال : أوّه من عذاب اللّه » [٣] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد أرسلنا** ﴾معطوف على قوله : ﴿ **ولقد آتينا داود** ﴾ واللام هى الموطئة للقسم ، وهذه القصة من جملة بيان قوله : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ و﴿**صالحا** ﴾ عطف بيان ، و﴿ **أن اعبدوا اللّه** ﴾ تفسير للرسالة وأن هى المفسرة ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى بأن اعبدوا اللّه ، و « إذا » فى ﴿ **فإذا هم فريقان** ﴾ هى الفجائية ، أى ففاجئوا التفرق والاختصام ، والمراد بالـ ﴿ **فريقان** ﴾ : المؤمنون منهم والكافرون . ومعنى الاختصام : أن كلّ فريق يخاصم على ما هو فيه ويزعم أن الحقّ معه . وقيل : إن الخصومة

---

(١) ابن كثير ٥/ ٢٤٠ .

(٢) البخارى فى التاريخ ١/ ٣٦٢ وقال : « إسماعيل بن عبد الرحمن لا يتابع عليه ، فيه نظر » .

(٣) ابن عدى ١/ ٢٨٦ والبيهقى فى الشعب (٧٧٧٨) ط : دار الكتب العلمية ، وقد تفرد به إسماعيل بن عبد الرحمن وسبق تعليق البخارى عليه . انظر : لسان الميزان ١/ ٤٦٧ .

بينهم فى صالح هل هو مرسل أم لا ؟ وقيل: أحد الفريقين صالح ، والفريق الآخر جميع قومه، وهو ضعيف .

﴿ **قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ أى قال صالح للفريق الكافر منهم منكرا عليهم : لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة . والمعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب وتقدّمون الكفر الذى يجلب إليكم العقوبة ؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون : ائتنا يا صالح بالعذاب ﴿ **لولا تستغفرون اللّه** ﴾ هلا تستغفرون اللّه وتتوبون إليه من الشرك ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ رجاء أن ترحموا أو كى ترحموا فلا تعذبوا ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشرّ ، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازا ؛ إما لأن العقاب من لوازمه ؛ أوأنه يشبهه فى كونه مكروها ، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم ﴿ **قالوا اطيرنا بك وبمن معك** ﴾ أصله تطيرنا ، وقد قرئ بذلك. والتطير : التشاؤم، أى تشاءمنا بك وبمن معك ممن أجابك ودخل فى دينك وذلك ؛ لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح ، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة وأشقاهم بها وكانوا إذا أرداوا سفرا أو أمرا من الأمور نفروا طائرا من وكره فإن طار يمنة ساروا وفعلوا ما عزموا عليه ، وإن طار يسرة تركوا ذلك فلما قالوا ذلك قال لهم صالح: ﴿ **طائركم عند اللّه** ﴾ أى ليس ذلك بسبب الطير الذى تتشاءمون به ، بل سبب ذلك عند اللّه ، وهو ما يقدّره عليكم ، والمعنى : أن الشؤم الذى أصابكم هو من عند اللّه بسبب كفركم وهذا كقوله تعالى: ﴿ يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند اللّه﴾ [الأعراف : ١٣] . ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان ، فقال : ﴿ **بل أنتم قوم تفتنون** ﴾ أى تمتحنون وتختبرون . وقيل : تعذبون بذنوبكم : وقيل : يفتنكم غيركم . وقيل : يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة أو بما لأجله تطيرون فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعى إليه .

﴿ **وكان فى المدينة** ﴾ التى فيها صالح ، وهو الحجر ﴿ **تسعة رهط** ﴾ أى تسعة رجال من أبناء الأشراف . والرهط : اسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كلّ واحد منهم جماعة . والجمع أرهط وأراهط . وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار عاقر الناقة . ثم وصف هؤلاء بقوله : ﴿ **يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ أى شأنهم وعملهم الفساد فى الأرض الذى لا يخالطه صلاح ، وقد اختلف فى أسماء هؤلاء التسعة اختلافا كثيرا لا حاجة إلى التطويل بذكره. ﴿**قالوا تقاسموا باللّه** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : احلفوا باللّه ، هذا على أن ﴿ **تقاسموا** ﴾ فعل أمر ، ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا ، كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقال : تقاسموا ، أو يكون حالا على إضمار قد ، أى قالوا ذلك متقاسمين . وقرأ ابن مسعود : « يفسدون فى الأرض ولا يصلحون تقاسموا باللّه » وليس فيها قالوا ، واللام فى ﴿ **لنبيتنه وأهله** ﴾ جواب القسم ، أى لنأتينه بغتة فى وقت البيات ، فنقتله وأهله ﴿ **ثم لنقولن لوليه** ﴾ قرأ الجمهور بالنون للمتكلم فى ﴿**لنبيتنه**﴾ وفى ﴿**لنقولن**﴾ ، واختار هذه القراءة أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائى بالفوقية فيهما

على خطاب بعضهم لبعضهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ مجاهد وحميد بالتحتية فيهما، والمراد بوليّ صالح : رهطه ﴿ **ما شهدنا مهلك أهله** ﴾ أى ما حضرنا قتلهم ولا ندرى من قتله وقتل أهله، ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفى شهودهم لنفس القتل بالأولى ، وقيل: إن المهلك بمعنى : الإهلاك ، وقرأ حفص والسلمى مهلك بفتح الميم واللام ، وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم وكسرها [1] . ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فيما قلناه . قال الزجاج : وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحا وأهله ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه وكان هذا مكرا منهم ، ولهذا قال اللّه سبحانه : ﴿ **ومكروا مكرا** ﴾ أى بهذه المحالفة ﴿ **ومكرنا مكرا** ﴾ جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ بمكر اللّه بهم .

﴿ **فانظر كيف كان عاقبة مكرهم** ﴾ أى انظر ما انتهى إليه أمرهم الذى بنوه على المكر وما أصابهم بسببه ﴿ **أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ قرأ الجمهور بكسر همزة أنا ، وقرأ حمزة والكسائى والأعمش والحسن وابن أبى إسحاق وعاصم بفتحها ، فمن كسر جعله استئنافا . قال الفراء والزجاج : من كسر أستأنف ، وهو يفسر به ما كان قبله . كأنه جعله تابعا للعاقبة ، كأنه قال : العاقبة إنا دمرناهم ، وعلى قراءة الفتح يكون التقدير : بأنا دمرناهم أو لأنا دمرناهم، وكان تامة وعاقبة فاعل لها ، أو يكون بدلا من عاقبة ، أو يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى هى أنا دمرناهم ويجوز أن تكون كان ناقصة وكيف خبرها ، ويجوز أن يكون خبرها أنا دمرنا . قال أبو حاتم : وفى حرف أبى : « أن دمرناهم » . والمعنى فى الآية : أن اللّه دمر التسعة الرهط المذكورين . ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك ، ومعنى التأكيد بأجمعين: أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم .

وجملة : ﴿ **فتلك بيوتهم خاوية** ﴾ مقرّرة لما قبلها . قرأ الجمهور : ﴿ **خاوية** ﴾ بالنصب على الحال . قال الزجاج : المعنى : فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية ، وكذا قال الفراء والنحاس ، أى خالية عن أهلها خرابا ليس بها ساكن . وقال الكسائى وأبو عبيدة : نصب خاوية على القطع . والأصل : فتلك بيوتهم الخاوية . فلما قطع منها الألف واللام نصبت كقوله : ﴿وله الدين واصبا﴾ [النحل : ٥٢]. وقرأ عاصم بن عمر ونصر بن عاصم والجحدرى وعيسى ابن عمر برفع ﴿ **خاوية** ﴾ على أنه خبر اسم الإشارة وبيوتهم بدل ، أو عطف بيان ، أو خبر لاسم الإشارة وخاوية خبر آخر. والباء فى : ﴿ **بما ظلموا** ﴾ للسببية، أى بسبب ظلمهم ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ التدمير والإهلاك ﴿ **لآية** ﴾ عظيمة ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ أى يتصفون بالعلم بالأشياء. ﴿ **وأنجينا الذين آمنوا** ﴾ وهم صالح ومن آمن به ﴿ **وكانوا يتقون** ﴾ اللّه ويخافون عذابه .

---

(١) فى المخطوطة: «قرأ حفص والسلمى مهلك» بفتح الميم واللام وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم وكسر اللام، وفى العبارة قلب إذ الثابت أن حفصا قرأ بفتح الميم وكسر اللام وكذا السلمى وقرأ أبو بكر والمفضل بفتح الميم واللام . انظر : النشر فى القراءات العشر ٢/ ٣١١ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **طائركم** ﴾ قال : مصائبكم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وكان فى المدينة تسعة رهط** ﴾ قال : هم الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها : نبيت صالحا وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئا وما لنا به علم فدمرهم اللّه أجمعين .

﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦)** ﴾ .

انتصاب ﴿ **لوطا** ﴾ بفعل مضمر معطوف على أرسلنا ، أى وأرسلنا لوطا ، و ﴿ **إذ قال** ﴾ ظرف للفعل المقدر ويجوز أن يقدر : اذكر ؛ والمعنى : وأرسلنا لوطا وقت قوله لقومه: ﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ أى الفعلة المتناهية فى القبح والشناعة ، وهم أهل سدوم ، وجملة : ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ فى محل نصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار ، أى وأنتم تعلمون أنها فاحشة . وذلك أعظم لذنوبكم ، على أن ﴿ **تبصرون** ﴾ من بصر القلب ، وهو العلم ، أو بمعنى النظر؛ لأنهم كانوا لا يسترون حال فعل الفاحشة عتوا وتمردا ، وقد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف مستوفى . ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال شهوة** ﴾ فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هى اللواطة ، وانتصاب ﴿ **شهوة** ﴾ على العلة ، أى للشهوة ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى إتيانا شهوة ، أو أنه بمعنى الحال ، أى مشتهين لهم ﴿ **من دون النساء** ﴾ أى متجاوزين النساء

اللاتى هنّ محل لذلك ﴿ **بل أنتم قوم تجهلون** ﴾ التحريم أو العقوبة على هذه المعصية ، واختار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة من أئنكم .

﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿ **جواب** ﴾ على أنه خبر كان ، واسمها ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ أى إلا قولهم . وقرأ ابن أبى إسحاق برفع جواب على أنه اسم كان وخبرها ما بعده . ثم عللوا ما أمروا به بعضهم بعضا من الإخراج بقولهم: ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ أى يتنزهون عن أدبار الرجال : قالوا ذلك استهزاء منهم بهم . ﴿ **فأنجيناه وأهله** ﴾ من العذاب ﴿ **إلا امرأته قدّرناها من الغابرين** ﴾ أى قدّرنا أنها من الباقين فى العذاب ، ومعنى ﴿ **قدرنا** ﴾ : قضينا : قرأ الجمهور قدّرنا بالتشديد ، وقرأ عاصم بالتخفيف . والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى . ﴿**وأمطرنا عليهم مطرا** ﴾ هذا التأكيد يدل على شدة المطر وأنه غير معهود ﴿ **فساء مطر المنذرين** ﴾ المخصوص بالذم محذوف ، أى ساء مطر المنذرين مطرهم ، والمراد بالمنذرين : الذين أنذروا فلم يقبلوا ، وقد مضى بيان هذا كله فى الأعراف والشعراء .

﴿ **قل الحمد للّه وسلام على عباده** ﴾ قال الفراء : قال أهل المعانى : قيل للوط : قل : الحمد للّه على هلاكهم، وخالفه جماعة فقالوا : إن هذا خطاب لنبينا ﷺ ، أى قل : الحمد للّه على هلاك كفار الأمم الخالية، وسلام على عباده ﴿ **الذين اصطفى** ﴾ قال النحاس: وهذا أولى لأن القرآن منزل على النبى ﷺ وكلّ ما فيه فهو مخاطب به إلا ما لم يصحّ معناه إلا لغيره. قيل : والمراد بعباده الذين اصطفى : أمة محمد ﷺ ، والأولى حمله على العموم ، فيدخل فى ذلك الأنبياء(١). وأتباعهم ﴿ **اللّه خير أما يشركون** ﴾ أى اللّه الذى ذكرت أفعاله وصفاته الدالة على عظيم قدرته خير أما يشركون به من الأصنام ؟ وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلى ، بل هى كقول الشاعر :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

فيكون ما فى الآية من باب التهكم بهم ، إذ لا خير فيهم أصلا . وقد حكى سيبويه أن العرب تقول : السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة ، ولا خير فى الشقاوة أصلا . وقيل : المعنى : أثواب اللّه خير ، أم عقاب ما تشركون به ؟ وقيل : قال لهم ذلك جريا على اعتقادهم ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا. وقيل: المراد من هذا الاستفهام: الخبر. قرأ الجمهور : « تشركون » بالفوقية على الخطاب ، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿ **يشركون** ﴾ بالتحتية ، و« أم » فى ﴿ **أما يشركون** ﴾ هى المتصلة ، وأما فى قوله : ﴿ **أمن خلق السموات والأرض** ﴾ فهى المنقطعة . وقال أبو حاتم : تقديره : آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض وقدر على خلقهنّ ؟ وقيل: المعنى: أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير،

(١) فى المطبوعة :« الأنباء » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

أم عبادة من خلق السموات والأرض ؟ فتكون « أم » على هذا متصلة وفيها معنى التوبيخ والتهكم كما في الجملة الأولى . وقرأ الأعمش: « أمن » بتخفيف الميم ﴿ **وأنزل لكم من السماء ماء** ﴾ أي نوعا من الماء ، وهو المطر ﴿ **فأنبتنا به حدائق** ﴾ جمع حديقة . قال الفراء : الحديقة : البستان الذى عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق : النخل ﴿ **ذات بهجة** ﴾ أى ذات حسن ورونق . والبهجة : هى الحسن الذى يبتهج به من رآه ولم يقل : ذوات بهجة على الجمع ؛ لأن المعنى: جماعة حدائق ﴿ **ما كان لكم أن تنبتوا شجرها** ﴾ أى ما صح لكم أن تفعلوا ذلك ، ومعنى هذا النفى : الحظر والمنع من فعل هذا ، أى ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ذلك ولا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود . ثم قال سبحانه موبخا لهم مقرّعا ﴿ **أإله مع اللّه** ﴾ أى هل معبود مع اللّه الذى تقدّم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ويجعل شريكا له فى العبادة ؟ وقرئ : « أإلها مع اللّه » بالنصب على تقدير : أتدعون إلها . ثم أضرب عن تقريعهم وتوبيخهم بما تقدم وانتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فقال : ﴿ **بل هم قوم يعدلون** ﴾ أى يعدلون باللّه غيره ، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل .

ثم شرع فى الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها فقال : ﴿ **أمن جعل الأرض قرارا** ﴾ القرار : المستقر ، أى دحاها وسوّاها بحيث يمكن الاستقرار عليها . وقيل : هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله : ﴿ **أمن خلق السموات والأرض** ﴾ ولا ملجئ لذلك ، بل هى وما بعدها إضراب وانتقال من التوبيخ والتقريع بما قبلها إلى التوبيخ والتقريع بشيء آخر ﴿**وجعل خلالها أنهارا** ﴾ الخلال : الوسط . وقد تقدّم تحقيقه فى قوله : ﴿ وفجرنا خلالهما نهرا﴾ [الكهف : ٣٣] ، ﴿ **وجعل لها رواسى** ﴾ أى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة ﴿**وجعل بين البحرين حاجزا** ﴾ الحاجز : المانع ، أى جعل بين البحرين من قدرته حاجزا ، والبحران هما : العذب والمالح ، فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يدخل فى هذا ، وقد مرّ بيانه فى سورة الفرقان ﴿ **أإله مع اللّه** ﴾ أى إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه فهل إله فى الوجود يصنع صنعه ويخلق خلقه ؟ فكيف يشركون به ما لا يضرّ ولا ينفع ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ توحيد ربهم وسلطان قدرته .

﴿ **أمن يجيب المضطرّ إذا دعاه**﴾ هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم، والمضطر اسم مفعول من الاضطرار ، وهو المكروب المجهود الذى لا حول له ولا قوة . وقيل : هو المذنب ، وقيل : هو الذى عراه ضرّ من فقر أو مرض ، فألجأه إلى التضرّع إلى اللّه . واللام فى ﴿ **المضطر** ﴾ للجنس لا للاستغراق ، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه ، وإلا فقد ضمن اللّه سبحانه إجابة دعاء المضطرّ إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ، والوجه فى إجابه دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص وقطع النظر عما سوى اللّه ، وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء

obeikandi.com

المخلصين له الدين وإن كانوا كافرين فقال : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا اللّه مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ [يونس : ٢٢] ، وقال: ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . فأجابهم عند ضرورتهم وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم ﴿ **ويكشف السوء** ﴾ أى الذى يسوء العبد من غير تعيين ، وقيل : هو الضر ، وقيل : هو الجور ﴿ **ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾ أى يخلف كل قرن منكم القرن الذى قبله بعد انقراضهم ، والمعنى : يهلك قرنا وينشئ آخرين . وقيل : يجعل أولادكم خلفا منكم . وقيل : يجعل المسلمين خلفا من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم ﴿ **أإله مع اللّه** ﴾ الذى يوليكم هذه النعم الجسام ﴿ **قليلا ما تذكرون** ﴾ أى تذكرا قليلا ما تذكرون . قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب بالتحتية على الخبر ردّا على قوله : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ واختار هذه القراءة أبو حاتم .

﴿ **أمن يهديكم فى ظلمات البرّ والبحر** ﴾ أى يرشدكم فى الليالى المظلمات إذا سافرتم فى البرّ أو البحر . وقيل: المراد : مفاوز البرّ التى لا أعلام لها ولجج البحار ، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها ﴿ **ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ والمراد بالرحمة هنا: المطر، أى يرسل الرياح بين يدى المطر ، وقبل نزوله ﴿ **أإله مع اللّه** ﴾ يفعل ذلك ويوجده ﴿ **تعالى اللّه عما يشركون** ﴾ أى تنزه وتقدّس عن وجود ما يجعلونه شريكا له . ﴿**أم من يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ كانوا يقرّون بأن اللّه سبحانه هو الخالق فألزمهم الإعادة ، أى إذا قدر على الابتداء قدر على الإعادة ﴿ **ومن يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ بالمطر والنبات ، أى هو خير أم ما تجعلونه شريكا له مما لا يقدر على شيء من ذلك ﴿ **أإله مع اللّه** ﴾ حتى تجعلونه شريكا له ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ أى حجتكم على أن لله سبحانه شريكا ، أو هاتوا حجتكم أن ثمّ صانعا يصنع كصنعه ، وفى هذا تبكيت لهم وتهكم بهم ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا اللّه** ﴾ أى لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة فى السموات والأرض الغيب الذى استأثر اللّه بعلمه ، والاستثناء فى قوله إلا اللّه منقطع ، أى لكن اللّه يعلم ذلك ، ورفع ما بعد إلا مع كون الاستثناء منقطعا هو على اللغة التميمية كما فى قولهم :

إلا اليعافير وإلا العيس

وقيل: إن فاعل ﴿ **يعلم** ﴾ هو ما بعد إلا، و ﴿ **من فى السموات** ﴾ مفعوله، و ﴿**الغيب**﴾ بدل من « من » ، أى لا يعلم غيب من فى السموات والأرض إلا اللّه ، وقيل : هو استثناء متصل من « من » . وقال الزجاج : ﴿ **إلا اللّه** ﴾ بدل من « من » . قال الفراء : وإنما رفع ما بعد إلا لأن ما بعدها خبركقولهم : ما ذهب أحد إلا أبوك وهو كقول الزجاج . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ﴿ **وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾ أى لا يشعرون متى ينشرون من

obeikandl.com

القبور، وأيان مركبة من أى وإن . وقد تقدّم تحقيقه ، والضمير للكفرة . وقرأ السلمى : « إيان » بكسر الهمزة ، وهى لغة بنى سليم وهى منصوبة بـ « يبعثون » ومعلقة لـ « يشعرون » ، فتكون هى وما بعدها فى محل نصب بنزع الخافض ، أى وما يشعرون بوقت بعثهم ، ومعنى أيان معنى متى .

﴿ **بل ادّارك علمهم فى الآخرة** ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ **ادّارك** ﴾ . وأصل ادارّك : تدارك ، أدغمت التاء فى الدال وجىء بهمزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن . وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمر وحميد : « بل أدرك » من الإدراك . وقرأ عطاء بن يسار وسليمان بن يسار والأعمش: « بل ادّرك » بفتح لام بل وتشديد الدال . وقرأ ابن محيصن : « بل أدرك » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس وأبو رجاء وشيبة والأعمش والأعرج : « بلى أدّارك » بإثبات الياء فى بل وبهمزة قطع وتشديد الذال . وقرأ أبىّ « بل تدارك » ومعنى الآية : بل تكامل علمهم فى الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به وعاينوه . وقيل : معناه : تتابع علمهم فى الآخرة ، والقراءة الثانية معناها كمل علمهم فى الآخرة مع المعاينة وذلك حين لا ينفعهم العلم ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا مكذبين . وقال الزجاج : إنه على معنى الإنكار ، واستدلّ على ذلك بقوله فيما بعد : ﴿ **بل هم منها عمون** ﴾ أى لم يدرك علمهم علم الآخرة ، وقيل : المعنى : بل ضلّ وغاب علمهم فى الآخرة فليس لهم فيها علم ، ومعنى القراءة الثالثة كمعنى القراءة الأولى فافتعل وتفاعل قد يجيئان لمعنى ، والقراءة الرابعة هى بمعنى الإنكار . قال الفراء : وهو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم ، وفى الآية قراءات أخر لا ينبغى الاشتغال بذكرها وتوجيهها. ﴿ **بل هم فى شك منها** ﴾ أى بل هم اليوم فى الدنيا فى شك من الآخرة . ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشد منه فقال : ﴿ **بل هم منها عمون** ﴾ فلا يدركون شيئا من دلائلها لاختلال بصائرهم التى يكون بها الإدراك ، وعمون جمع عم : وهو من كان أعمى القلب ، والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شىء مما يوصل إلى العلم بها ، فمن قال : إن معنى الآية الأولى أعنى ﴿ **بل ادّارك علمهم فى الآخرة** ﴾ أنه كمل علمهم وتمّ مع المعاينة فلابدّ من حمل قوله : ﴿ **بل هم فى شك** ﴾ إلخ على ما كانوا عليه فى الدنيا ، ومن قال : إن معنى الآية الأولى الاستهزاء بهم والتبكيت لهم لم يحتج إلى تقييد قوله : ﴿ **بل هم فى شك** ﴾ إلخ بما كانوا عليه فى الدنيا . وبهذا يتضح معنى هذه الآيات ويظهر ظهورا بينا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن جرير، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾. قال : هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم اللّه لنبيه ، وروى مثله عن سفيان الثورى . والأولى ما قدمناه من التعميم فيدخل فى ذلك أصحاب نبينا ﷺ دخولا أوليا . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى والطبرانى، عن رجل من بلجهم قال : قلت : يا رسول اللّه ، إلى ما تدعو ؟ قال : « أدعو اللّه وحده الذى إن مسك ضرّ فدعوته كشفه عنك » هذا طرف من حديث طويل . وقد رواه أحمد من وجه آخر

فبين اسم الصحابى فقال : حدّثنا عفان ، حدّثنا حماد بن سلمة ، حدّثنا يونس ، حدّثنا عبيد بن عبيدة الهجيمى عن أبيه عن أبى تميمة الهجيمى عن جابر بن سليم الهجيمى . ولهذا الحديث طرق عند أبى داود والنسائى (١) .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة قالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهم فقد أعظم على اللّه الفرية . وقالت فى آخره : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون فى غد فقد أعظم على اللّه الفرية ، واللّه تعالى يقول: ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا اللّه** ﴾ (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس : ﴿ **بل ادّارك علمهم فى الآخرة** ﴾ قال : حين لا ينفع العلم . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عنه أنه قرأ: « بل أدرك علمهم فى الآخرة » قال: لم يدرك علمهم . قال أبو عبيد : يعنى أنه قرأها بالاستفهام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا : « بل ادّرك علمهم فى الآخرة » يقول : غاب علمهم .

﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه أن المشركين فى شك من البعث وأنهم عمون عن النظر فى دلائله أراد أن

---

(١) أحمد ٥/ ٦٤ وأبو داود فى اللباس (٤٠٨٤) .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٥٥) ومسلم فى الإيمان (١٧٧/ ٢٨٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٨) وقال: «حسن صحيح » .

يبين غاية شبههم وهى مجرّد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم ترابا فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون** ﴾ والعامل فى « إذا » محذوف دلّ عليه ﴿ **مخرجون** ﴾ تقديره : أنبعث أو نخرج إذا كنا ، وإنما لم يعمل فيه مخرجون لتوسط همزة الاستفهام وإن ولام الابتداء بينهما. قرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة . وقرأ عاصم وحمزة باستفهامين، إلا أنهما حققا الهمزتين . وقرأ نافع بهمزة . وقرأ ابن عامر وورش [١] ويعقوب . ﴿ **أإذا** ﴾ بهمزتين و﴿ **إننا** ﴾ بنونين على الخبر ، ورجح أبو عبيد قراءة نافع ، وردّ على من جمع بين استفهامين ؛ ومعنى الآية : أنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا ترابا ، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا: ﴿ **لقد وعدنا هذا** ﴾ يعنون البعث ﴿ **نحن وآباؤنا من قبل** ﴾ أى من قبل وعد محمد لنا ، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدّرة بالقسم لزيادة التقرير ﴿ **إن هذا** ﴾ الوعد بالبعث ﴿ **إلا أساطير الأولين** ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة ، وقد تقدّم تحقيق معنى الأساطير فى سورة المؤمنون .

ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث ، فأمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء وما عوقبوا به وكيف كانت عاقبتهم فقال: ﴿**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث ومعنى النظر هو : مشاهدة آثارهم بالبصر ، فإن فى المشاهدة زيادة اعتبار . وقيل: المعنى : فانظروا بقلوبكم وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم ، والأوّل أولى لأمرهم بالسير فى الأرض ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر ﴿**ولا تكن فى ضيق** ﴾ الضيق: الحرج، يقال : ضاق الشيء ضيقا بالفتح وضيقا بالكسر قرئ بهما، وهما لغتان . قال ابن السكيت : يقال : فى صدر فلان ضيق وضيق وهو ما تضيق عنه الصدور . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى آخر سورة النحل ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد** ﴾ أى بالعذاب التى تعدنا به ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ فى ذلك.

﴿ **قل عسى أن يكون ردف لكم** ﴾ يقال : ردفت الرجل وأردفته: إذا ركبت خلفه، وردفه: إذا أتبعه وجاء فى أثره ، والمعنى : قل يا محمد ، لهؤلاء الكفار : عسى أن يكون هذا العذاب الذى به توعدون تبعكم ولحقكم، فتكون اللام زائدة للتأكيد ، أو بمعنى : اقترب لكم ودنا لكم ، فتكون غير زائدة . قال ابن شجرة : معنى ردف لكم : تبعكم ، قال : ومنه ردف المرأة ، لأنه تبع لها من خلفها ، ومنه قول أبى ذؤيب :

عاد السواد بياضا فى مفارقه لا مرحبا ببياض الشيب إذ ردفا

قال الجوهرى : وأردفه لغة فى ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى. قال خزيمة بن مالك بن نهد:

إذا الجــوزاء أردفت الثريــا ظننـت بـآل فـاطمـة الظنونا

---

(١) فى المخطوطة : « ابن عامر وورش ويعقوب »، وفى القرطبى: « الكسائى وابن عامر ورويس ويعقوب ». انظر : القرطبى ٧/ ٤٩٤٤ .

قال الفراء : ردف لكم دنا لكم ولهذا قيل : لكم . وقرأ الأعرج : « ردف لكم » بفتح الدال وهى لغة والكسر أشهر . وقرأ ابن عباس : « أزف لكم » وارتفاع ﴿ **بعض الذى تستعجلون** ﴾ أى على أنه فاعل ردف ، والمراد : بعض الذى تستعجلونه من العذاب ، أى عسى أن يكون قد قرب ودنا وأزف بعض ذلك ، قيل : هو عذابهم بالقتل يوم بدر. وقيل : هو عذاب القبر . ثم ذكر سبحانه فضله فى تأخير العذاب فقال : ﴿ **وإن ربك لذو فضل على الناس** ﴾ فى تأخير العقوبة، والأولى أن تحمل الآية على العموم ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾ فضله وإنعامه ولا يعرفون حق إحسانه .

ثم بين أنه مطلع على ما فى صدورهم ، فقال : ﴿ **وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم** ﴾ أى ما تخفيه . قرأ الجمهور: ﴿ **تكن** ﴾ بضم التاء من أكنّ . وقرأ ابن محيصن وابن السميقع وحميد بفتح التاء وضم الكاف ، يقال : كننته بمعنى : سترته وخفيت أثره ﴿ **وما يعلنون** ﴾ وما يظهرون من أقوالهم وأفعالهم . ﴿ **وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين** ﴾ قال المفسرون: ما من شىء غائب وأمر يغيب عن الخلق فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين إلا هو مبين فى اللوح المحفوظ ، وغائبة هى من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة . قال الحسن : الغائبة هنا هى : القيامة . وقال مقاتل : علم ما تستعجلون من العذاب هو مبين عند الله وإن غاب عن الخلق . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا : جميع ما أخفى الله عن خلقه وغيبه عنهم مبين فى أمّ الكتاب ، فكيف يخفى عليه شىء من ذلك ؟ ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب فإنه موقت بوقت ومؤجل بأجل علمه عند الله ، فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له ؟

﴿ **إن هذا القرآن يقصّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾ وذلك لأن أهل الكتاب تفرّقوا فرقا وتحزّبوا أحزابا يطعن بعضهم على بعض ويتبرأ بعضهم من بعض ، فنزل القرآن مبينا لما اختلفوا فيه من الحق ، فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرّقهم. ﴿ **وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ أى وإنّ القرآن لهدى ورحمة لمن آمن بالله وتابع رسوله ، وخصّ المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به ، ومن جملتهم من آمن من بنى إسرائيل. ﴿ **إن ربك يقضى بينهم بحكمه** ﴾ أى يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بما يحكم به من الحق فيجازى المحق ويعاقب المبطل . وقيل : يقضى بينهم فى الدنيا فيظهر ما حرّفوه . قرأ الجمهور : ﴿ **بحكمه** ﴾ بضم الحاء وسكون الكاف . وقرأ جناح بكسرها وفتح الكاف جمع حكمة ﴿ **وهو العزيز العليم**﴾ العزيز : الذى لا يغالب ، والعليم : بما يحكم به ، أو الكثير العلم .

ثم أمره سبحانه بالتوكل وقلة المبالاة ، فقال : ﴿ **فتوكل على الله** ﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما تقدّم ذكره، والمعنى: فوّض إليه أمرك واعتمد عليه فإنه ناصرك . ثم علل ذلك بعلتين : الأولى: قوله : ﴿ **إنك على الحق المبين** ﴾ أى الظاهر ، وقيل : المظهر . والعلة الثانية : قوله : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى** ﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى فى انتفاء الجدوى بالسماع ، أو

كحال الصمّ الذين لا يسمعون ولا يفهمون ولا يهتدون ؛ صار ذلك سببا قويا فى عدم الاعتداد بهم . شبه الكفار بالموتى الذين لا حسّ لهم ولا عقل ، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء إلى اللّه . ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيده فقال : ﴿ **إذا ولوا مدبرين** ﴾ أى إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما ، فإن الأصمّ لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلا فكيف إذا كان معرضا عنه موليا مدبرا ؟ وظاهر نفى إسماع الموتى العموم ، فلا يخصّ منه إلا ما ورد بدليل كما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ خاطب القتلى فى قليب بدر ، فقيل له : يا رسول اللّه ، إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها [(١)] وكذلك ما ورد من أن « الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا » [(٢)] . وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبى إسحاق : « لا يسمع » بالتحتية مفتوحة وفتح الميم ، وفاعله الصمّ . وقرأ الباقون : ﴿ **تسمع** ﴾ بضم الفوقية وكسر الميم من أسمع . قال قتادة : الأصمّ إذا ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع ، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان .

ثم ضرب العمى مثلا لهم فقال : ﴿ **وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم** ﴾ أى ما أنت بمرشد من أعماه اللّه عن الحق إرشادا يوصله إلى المطلوب منه وهو الإيمان ، وليس فى وسعك ذلك ، ومثله قوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ [القصص : ٥٦] . قرأ الجمهور بإضافة هادى إلى العمى. وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيان : « بهاد العمى » بتنوين هاد. وقرأ حمزة : « تهدى » فعلا مضارعا ، وفى حرف عبد اللّه : « وما أن تهدى العمى » . ﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا** ﴾ أى ما تسمع إلا من يؤمن لا من يكفر ، والمراد بمن يؤمن بالآيات : من يصدّق القرآن، وجملة : ﴿ **فهم مسلمون** ﴾ تعليل للإيمان ، أى فهم منقادون مخلصون .

ثم هدد العباد بذكر طرف من أشراط الساعة وأهوالها: فقال: ﴿ **وإذا وقع القول عليهم** ﴾. واختلف فى معنى وقوع القول عليهم ، فقال قتادة : وجب الغضب عليهم : وقال مجاهد : حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقيل : حق العذاب عليهم ، وقيل : وجب السخط ، والمعانى متقاربة . وقيل : المراد بالقول : ما نطق به القرآن من مجىء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التى كانوا يستعجلونها . وقيل : وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم . وقيل : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر. والحاصل أن المراد بوقع : وجب ، والمراد بالقول : مضمونه، أو أطلق المصدر على المفعول ، أى القول . وجواب الشرط : ﴿ **أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم** ﴾ . واختلف فى هذه الدابة على أقوال ، فقيل : إنها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة ويكون من أشراط الساعة . وقيل : هى دابة ذات شعر وقوائم طوال يقال لها : الجساسة . وقيل : هى دابة على خلقة بنى آدم وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض . وقيل : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن إيَّل ، وعنقها عنق نعامة،

---

(١) مسلم فى الجنة (٧٦/٢٨٧٣) وفى المطبوعة : « أجسادا أرواح لها » والصحيح ماأثبتناه من المخطوطة .

(٢) مسلم فى الجنة (٧١/٢٨٧٠) وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣١) ورواه أحمد ٢/ ٤٤٥ عن أبى هريرة .

obeikandl.com

وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا . وقيل : هى الثعبان المشرف على جدار الكعبة التى اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . والمراد : أنها هى التى تخرج فى آخر الزمان . وقيل : هى دابة ما لها ذنب ولها لحية . وقيل : هى إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع ويراجع الكفار . وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى التطويل بذكره وقد رجح القول الأوّل القرطبى فى تفسيره .

واختلف من أى موضع تخرج ؟ فقيل : من جبل الصفا بمكة . وقيل : تخرج من جبل أبى قبيس . وقيل : لها ثلاث خرجات : خرجة فى بعض البوادى حتى يتقاتل عليها الناس ، وتكثر الدماء ثم تكمن، وتخرج فى القرى ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها. وقيل: تخرج من بين الركن والمقام . وقيل : تخرج فى تهامة . و قيل : من مسجد الكوفة من حيث فار التنور . وقيل : من أرض الطائف . وقيل : من صخرة من شعب أجياد . وقيل : من صدع فى الكعبة. واختلف فى معنى قوله : ﴿ **تكلمهم** ﴾ فقيل : تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوؤهم . وقيل : تكلمهم بقوله تعالى : ﴿ **أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ أى بخروجها ؛ لأن خروجها من الآيات. قرأ الجمهور : ﴿ **تكلمهم** ﴾ من التكليم ، ويدّل عليه قراءة أبىّ : « تنبئهم » وقرأ ابن عباس وأبو زرعة وأبو رجاء والحسن : «تكلمهم » بفتح الفوقية وسكون الكاف من الكلم ، وهو الجرح . قال عكرمة : أى تسمهم وسما . وقيل : تجرحهم . وقيل : إن قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم بفتح الكاف وسكون اللام وهو الجرح ، والتشديد للتكثير ، قاله أبو حاتم . قرأ الجمهور : « إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » بكسر إن على الاستئناف ، وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحاق بفتح « أن » . قال الأخفش : المعنى على قراءة الفتح : « بإن الناس » . وكذا قرأ ابن مسعود : « بأن الناس » بالباء . وقال أبو عبيد : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها ، أى تخبرهم أن الناس ، وعلى هذه القراءة فالذى تكلم الناس به هو قوله: ﴿ **أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ كما قدّمنا الإشارة إلى ذلك. وأما على قراءة الكسر فالجملة مستأنفة كما قدّمنا، ولا تكون من كلام الدابة . وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين ، وجزم به الكسائى والفراء . وقال الأخفش : إن كسر «إن » هو على تقدير القول ، أى تقول لهم : « إن الناس » إلخ ، فيرجع معنى القراءة الأولى على هذا إلى معنى القراءة الثانية، والمراد بالناس فى الآية : هم الناس على العموم ، فيدخل فى ذلك كل مكلف ، وقيل : المراد الكفار خاصة ، وقيل : كفار مكة ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **عسى أن يكون ردف لكم** ﴾ قال : اقترب لكم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ **وإن ربك ليعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون** ﴾ قال: يعلم ما عملوا بالليل والنهار. و أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم

obeikandi.com

عنه أيضا : ﴿ **وما من غائبة** ﴾ الآية يقول : ما من شيء فى السماء والأرض سرّا ولا علانية إلا يعلمه . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿**وإذا وقع القول عليهم** ﴾ الآية قال : إذا لم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر. وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى العالية أنه فسر : ﴿**وقع القول عليهم** ﴾ بما أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **دابة من الأرض تكلمهم** ﴾ قال: تحدّثهم. وأخرج ابن جرير عنه قال: كلامها: تنبئهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى داود نفيع الأعمى قال : سألت ابن عباس عن قوله: ﴿**تكلمهم**﴾ يعنى: هل هو من التكليم باللسان أو من الكلم وهو الجرح ؟ فقال: كل ذلك، والله تفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر ، أى تجرحه ، وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر فى الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك حديثا ولا كلاما[1]، ولكنها سمة تسم من أمرها الله به ، فيكون خروجها من الصفا ليلة سنى ، فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ولا يجرح جارح ، حتى إذا فرغت مما أمرها الله به فهلك من هلك ونجا من نجا، كان أوّل خطوة تضعها بأنطاكية ». وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: الدابة ذات وبر وريش مؤلفة فيها من كل لون، لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج . وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال: «تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم، ثم يعمرون فيكم حتى يشترى الرجل الدابة، فيقال له ممن اشتريتها ؟ فيقول: من الرجل المخطم»[2]. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس: إن للدابة ثلاث خرجات. وذكر نحو ما قدّمنا. وأخرج ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد رفعه قال: تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة. وأخرج سعيد بن منصور ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : تخرج من بعض أودية تهامة .

وأخرج الطيالسى وأحمد ونعيم بن حماد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم ، وتخطم أنف الكافر بالعصا ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » [3] . وأخرج الطيالسى ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن

---

(١) فى المخطوطة : « ليس ذلك حديث ولا كلام » بالرفع والصحيح ما أثبتناه بالنصب خبر ليس .

(٢) أحمد ٥/ ٢٦٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٩ : « رجاله رجال الصحيح غير عمر بن عبد الرحمن بن عطية وهو ثقة » .

(٣) الطيالسى (٢٥٦٤) وأحمد ٢/ ٢٩٥ والترمذى فى التفسير (٣١٨٧) وقال : « حسن غريب » وابن ماجه فى الفتن (٤٠٦٦) وابن جرير ٢٠/ ١١ والحاكم ٤/ ٤٨٥ وسكت عنه الذهبى .

أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن حذيفة بن أسيد الغفارىّ قال : ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: « لها ثلاث خرجات من الدهر»[١] . وذكرنحو ما قدمنا فى حديث طويل . وفى صفتها ومكان خروجها وما تصنعه ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح ، وبعضها حسن ، وبعضها ضعيف . وأما كونها تخرج ، وكونها من علامات الساعة فالأحاديث الواردة فى ذلك صحيحة . ومنها ما هو ثابت فى الصحيح كحديث حذيفة مرفوعا : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات » [٢] . وذكر منها الدابة فإنه فى صحيح مسلم وفى السنن الأربعة ، وكحديث : « بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدابة » [٣] . فإنه فى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا ، وكحديث ابن عمرو [٤] مرفوعا : « إن أوّل الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى » [٥] فإنه فى صحيح مسلم أيضا .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ .

ثم ذكر سبحانه طرفا مجملا من أهوال يوم القيامة ، فقال : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة

---

(١) الطيالسى (١٠٦٩) وابن جرير ٢٠/ ١٠ وصححه الحاكم ٤/ ٤٨٤ وقال الذهبى : « فيه طلحة بن عمرو الحضرمى ضعفوه وتركه أحمد » .

(٢) مسلم فى الفتن (١ ٠ ٢٩/ ٣٩) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١١) والترمذى فى الفتن (٢١٨٣) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٤٠٠) وابن ماجه فى الفتن (٤٠٥٥).

(٣) أحمد ٢/ ٧٣٣ومسلم فى الفتن ٢٩٤٧/ ١٢٨ .

(٤) فى المطبوعة : « ابن عمر » والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج .

(٥) أحمد ٢/ ٢٠١ ومسلم فى الفتن (٢٩٤١/ ١١٨) وأبو داود فى الملاحم ٤٣١٠ وابن ماجه فى الفتن (٤٠٦٩).

فوجا ﴾ العامل فى الظرف فعل محذوف خوطب به النبى ﷺ ، والحشر: الجمع . قيل : والمراد بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلى الشامل لجميع الخلق ، و « من » لابتداء الغاية، والفوج: الجماعة كالزمرة ، و« من » فى ﴿ **ممن يكذب بآياتنا** ﴾ بيانية ﴿ **فهم يوزعون**﴾ أى يحبس أولهم على آخرهم، وقد تقدّم تحقيقه فى هذه السورة مستوفى . وقيل : معناه : يدفعون، ومنه قول الشماخ :

وسمه وزعنا من خميس جحفل

ومعنى الآية : واذكر يا محمد ، يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكذبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم أو يدفعون، أى اذكر لهم هذا أو بينه تحذيرا لهم وترهيبا. ﴿**حتى إذا جاؤوا**﴾ إلى موقف الحساب قال الله لهم توبيخا وتقريعا: ﴿**أكذّبتم بآياتى**﴾ التى أنزلتها على رسلى، وأمرتهم بإبلاغها إليكم والحال أنكم ﴿**لم تحيطوا بها علما**﴾ بل كذبتم بها بادئ بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها ولا مستدلين على صحتها أو بطلانها تمردا وعنادا وجرأة على الله وعلى رسله ، وفى هذا مزيد تقريع وتوبيخ ؛ لأن من كذب بشىء ولم يحط به علما فقد كذب فى تكذيبه، ونادى على نفسه بالجهل وعدم الإنصاف، وسوء الفهم ، وقصور الإدراك، ومن هذا القبيل من تصدى لذمّ علم من العلوم الشرعية أو لذم علم هو مقدّمة من مقدّمتها ، ووسيلة يتوسل بها إليها ، ويفيد زيادة بصيرة فى معرفتها، وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها ، وهى اثنا عشر علما ، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية ، وهكذا كل علم من العلوم التى لها مزيد نفع فى فهم كتاب الله وسنة رسوله،فإنه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهل مجادل بالباطل، طاعن على العلوم الشرعية ، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التى تزجره عن جهله وضلاله وطعنه على ما لا يعرفه ، ولا يعلم به ، ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره ، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول وركاك الأديان ورعاع المتلبسين بالعلم زورا وكذبا .

و« أم » فى قوله : ﴿ **أماذا كنتم تعملون** ﴾ هى المنقطعة ، والمعنى : أم أى شىء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها والتفكر فى معانيها ؟ وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم. ﴿ **ووقع القول عليهم** ﴾ قد تقدم تفسيره قريبا، والباء فى ﴿ **بما ظلموا** ﴾ للسببية، أى وجب القول عليهم بسبب الظلم الذى أعظم أنواعه الشرك بالله ﴿ **فهم لا ينطقون** ﴾ عند وقوع القول عليهم ، أى ليس لهم عذر ينطقون به ، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم . وقال أكثر المفسرين : يختم على أفواههم فلا ينطقون .

ثم بعد أن خوفهم بأهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد ، وعلى الحشر ، وعلى النبوّة مبالغة فى الإرشاد وإبلاء للمعذرة ، فقال : ﴿ **ألم يروا أنا جعلنا**

الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ أى جعلنا الليل للسكون والاستقرار والنوم ، وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش ، والنهار مبصرا ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذى لا بدّ له منهم ، ووصف النهار بالإبصار ، وهو وصف للناس مبالغة فى إضاءته كأنه يبصر ما فيه . قيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : وجعلنا الليل مظلما ليسكنوا ، وحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه ، وتقدّم تحقيقه فى الإسراء وفى يونس . ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ المذكور ﴿**لآيات** ﴾ أى علامات ودلالات ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ باللّه سبحانه .

ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال : ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور** ﴾ هو معطوف على ﴿**ويوم نحشر** ﴾ منصوب بناصبه المتقدّم . قال الفراء : إن المعنى : وذلكم يوم ينفخ فى الصور ، والأوّل أولى . والصور : قرن ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدم فى الأنعام استيفاء الكلام عليه . والنفخات فى الصور ثلاث : الأولى : نفخة الفزع، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة البعث . وقيل : إنها نفختان ، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيرى والقرطبى (١) . وغيرهما . وقال الماوردى : هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور ﴿ **ففزع من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ أى خافوا وانزعجوا لشدّة ما سمعوا . وقيل : المراد بالفزع هنا : الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك فى كذا : إذا أسرعت إلى إجابتك ، والأوّل أولى بمعنى الآية . وإنما عبر بالماضى مع كونه معطوفا على مضارع: للدلالة على تحقق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان. وقال الفراء: هو محمول على المعنى؛ لأن المعنى : إذا نفخ ﴿ **إلا من شاء اللّه** ﴾ أى إلا من شاء اللّه أن لا يفزع عند تلك النفخة. واختلف فى تعيين من وقع الاستثناء له ، فقيل : هم الشهداء والأنبياء . وقيل: الملائكة. وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . وقيل: الحور العين . وقيل : هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون**﴾ ويمكن أن يكون الاستثناء شاملا لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك ﴿**وكل أتوه داخرين**﴾ قرأ الجمهور: « آتوه » على صيغة اسم الفاعل مضافا إلى الضمير الراجع إلى اللّه سبحانه . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وحفص عن عاصم : ﴿ **أتوه** ﴾ فعلا ماضيا ، وكذا قرأ ابن مسعود . وقرأ قتادة : « وكل أتاه » . قال الزجاج : إن من قرأ على الفعل الماضى فقد وحد على لفظ كل ، ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه ، وهو غلط ظاهر ، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيها ، بل التوحيد فى قراءة قتادة فقط ، ومعنى ﴿ **داخرين** ﴾ : صاغرين ذليلين ، وهو منصوب على الحال ، قرأ الجمهور : ﴿ **داخرين** ﴾ وقرأ الأعرج : « دخرين » بغير ألف ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة النحل .

﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ معطوف على ﴿ **ينفخ** ﴾ . والخطاب لرسول اللّه ﷺ أو

---

(١) القرطبى ٧/٤٩٥٦ .

لكلّ من يصلح للرؤية ، و ﴿ **تحسبها جامدة** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير ترى أو من مفعوله ؛ لأن الرؤية بصرية . وقيل : **هى** بدل من الجملة الأولى ، وفيه ضعف ، **وهذه هى** العلامة الثالثة لقيام الساعة ، ومعنى ﴿ **تحسبها جامدة** ﴾ أى قائمة ساكنة ، وجملة : ﴿ **وهى تمرّ مر السحاب** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهى تسير سيرا حثيثا كسير السحاب التى تسيرها الرياح . قال القتيبى : وذلك أن الجبال تجمع وتسير **وهى** فى رؤية العين كالقائمة وهى تسير . قال القشيرى : وهذا يوم القيامة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ [النبأ : ٢٠] . قرأ أهل الكوفة تحسبها بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسرها ﴿ **صنع اللّه الذى أتقن كل شىء** ﴾ انتصاب ﴿ **صنع** ﴾ على المصدرية عند الخليل وسيبويه وغيرهما ، **أى صنع اللّه** ذلك صنعا . وقيل : هو مصدر مؤكد لقوله : ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور** ﴾ . وقيل : **منصوب** على الإغراء ، أى انظروا صنع اللّه، ومعنى ﴿ **الذى أتقن كل شىء** ﴾ : الذى أحكمه ، **يقال** : رجل تقن ، أى حاذق بالأشياء ، وجملة : ﴿ **إنه خبير بما تفعلون** ﴾ **تعليل** لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع وأتقن كل شىء ، والخبير : المطلع على الظواهر والضمائر . **قرأ الجمهور** بالتاء الفوقية على الخطاب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالتحتية على الخبر .

﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ الألف واللام للجنس ، أى من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند اللّه خير منها ، أى أفضل منها وأكثر . وقيل : خير حاصل من جهتها ، والأول أولى . وقيل : المراد بالحسنة هنا : لا إله إلا اللّه. وقيل : هى الإخلاص . وقيل :أداء الفرائض ، والتعميم أولى ولا وجه للتخصيص وإن قال به بعض السلف . قيل : وهذه الجملة بيان لقوله : ﴿ **إنه خبير بما تفعلون** ﴾ . وقيل : بيان لقوله : ﴿ **وكل أتوه داخرين** ﴾ . قرأ عاصم وحمزة والكسائى : ﴿ **وهم من فزع** ﴾ بالتنوين وفتح ميم ﴿ **يومئذ** ﴾ . وقرأ نافع بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذ . قال أبو عبيد : وهذا أعجب إلى ؛ لأنه أعم التأويلين لأن معناه : الأمن من فزع جميع ذلك اليوم ، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع . وقيل : إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر ، فتكون القراءتان بمعنى واحد . وقيل : المراد بالفزع ها هنا هو : الفزع الأكبر المذكور فى قوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] . ووجه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية لكون الإعراب فيه غير متمكن ، ولما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بنى ، وقد تقدم فى سورة هود كلام فى هذا مستوفى . ﴿ **ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار** ﴾ . قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم حتى قيل : إنه مجمع عليه بين أهل التأويل : إن المراد بالسيئة هنا : الشرك ، ووجه التخصيص قوله : ﴿ **فكبت وجوههم فى النار** ﴾ ، فهذا الجزاء لا يكون إلا بمثل سيئة الشرك ، ومعنى ﴿ **فكبت وجوههم فى النار** ﴾: أنهم كبوا فيها على وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها، يقال : كببت الرجل : إذا ألقيته لوجهه فانكبّ وأكبّ ، وجملة : ﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم**

تعملون ﴾ بتقدير القول، أى يقال ذلك، والقائل خزنة جهنم، أى ما تجزون إلا جزاء عملكم.

﴿ **إنما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذى حرمها** ﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة ، أى قل يا محمد : إنما أمرت أن أخص اللّه بالعبادة وحده لا شريك له . والمراد بالبلدة : مكة ، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون فيها بيت اللّه الحرام ؛ ولكونها أحبّ البلاد إلى رسوله ، والموصول صفة للربّ ، وهكذا قرأ الجمهور. وقرأ ابن عباس وابن مسعود : « التى حرمها » على أن الموصول صفة للبلدة ، ومعنى ﴿**حرّمها** ﴾ : جعلها حرما آمنا لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصطاد صيدها ، ولا يختلى خلاها ﴿ **وله كل شىء** ﴾ من الأشياء خلقا وملكا وتصرّفا ، أى وللّه كل شىء ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ أى المنقادين لأمر اللّه المستسلمين له بالطاعة ، وامتثال أمره ، و اجتناب نهيه . والمراد بقوله : ﴿ **أن أكون** ﴾ : أن أثبت على ما أنا عليه ﴿**وأن أتلو القرآن** ﴾ أى أداوم تلاوته وأواظب على ذلك . قيل : وليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة إلى الإيمان ، والأول أولى ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه** ﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه ، أى فمن اهتدى على العموم ، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه فعمل بما فيه من الإيمان باللّه ، والعمل بشرائعه . قرأ الجمهور: ﴿ **وأن أتلو** ﴾ بإثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة وهى القراءة ، أو من التلوّ ، وهو الاتباع . وقرأ عبد اللّه : « وأن أتل » بحذف الواو أمرا له ﷺ وكذا وجهه الفراء . قال النحاس : ولا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة ، وهى مخالفة لجميع المصاحف ﴿ **ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين** ﴾ أى ومن ضلّ بالكفر وأعرض عن الهداية فقل له : إنما أنا من المنذرين ، وقد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم وليس علىّ غير ذلك . وقيل : الجواب محذوف ، أى فوبال ضلاله عليه ، وأقيم ﴿ **إنما أنا من المنذرين** ﴾ مقامه لكونه كالعلة له .

﴿ **وقل الحمد للّه** ﴾ على نعمه التى أنعم بها علىّ من النبوّة والعلم وغير ذلك ، وقوله : ﴿ **سيريكم آياته** ﴾ هو من جملة ما أمر به النبى ﷺ أن يقوله ، أى سيريكم اللّه آياته فى أنفسكم وفى غيركم ﴿ **فتعرفونها** ﴾ أى تعرفون آياته ، ودلائل قدرته ووحدانيته ، وهذه المعرفة لا تنفع الكفار ؛ لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان ، وذلك عند حضور الموت . ثم ختم السورة بقوله : ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذى أمر النبى ﷺ أن يقوله ، وفيه ترهيب شديد وتهديد عظيم . قرأ أهل المدينة والشام وحفص عن عاصم : ﴿ **تعملون** ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **داخرين** ﴾ قال: صاغرين . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ قال : قائمة ﴿ **صنع اللّه الذى أتقن كل شىء** ﴾ قال : أحكم. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **صنع اللّه الذى أتقن كل شىء** ﴾ قال : أحسن كل شىء خلقه وأوثقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها**﴾ قال: « هى لا إله إلا اللّه » ﴿**ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار**﴾ قال : « هى الشرك » [1] . وإذا صحّ هذا عن رسول اللّه ﷺ فالمصير إليه فى تفسيركلام اللّه سبحانه متعين ويحمل على أن المراد قال : لا إله إلا اللّه بحقها ، وما يجب لها ، فيدخل تحت ذلك كل طاعة ، ويشهد له ما أخرجه الحاكم فى الكنى عن صفوان بن عسال قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا كان يوم القيامة : جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدى اللّه سبحانه ، فيقول اللّه للإيمان : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ، ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار » ثم تلا رسول اللّه ﷺ : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ ، يعنى قول : لا إله إلا اللّه ﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ يعنى : الشرك ﴿ **فكبت وجوههم فى النار** ﴾ . وأخرج ابن مردويه من حديث أبى هريرة وأنس نحوه مرفوعا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن كعب بن عجرة عن النبى ﷺ :﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ يعنى شهادة أن لا إله إلا اللّه ﴿ **فله خير منها** ﴾ يعنى بالخير: الجنة ﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ يعنى: الشرك ﴿ **فكبت وجوههم فى النار** ﴾ وقال : « هذه تنجى ، وهذه تردى » . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق عن ابن مسعود : ﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ قال: لا إله إلا اللّه ، ﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ قال : بالشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم : ﴿ **فله خير منها** ﴾ قال : له منها خير، يعنى : من جهتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ **فله خير منها** ﴾ قال :

---

(١) ابن جرير ٢٠/ ١٥ .